# التجديد والإصلاح الحضاري
# في
# فكر مالك بن نبي

إعداد الدكتور

**قيس سالم المعايطة**

جامعة مؤتة / كلية الشريعة / الأردن

## الملخص باللغة العربية

جاءت هذه الدراسة للتحدث عن طرق الإصلاح والتجديد الحضاري في فكر عالم ومفكر من علماء العصر رسم طريقا جديداً ومنهجاً فريدا لعلاج واقع هذه الأمة التي باتت ترزح تحت وطأة التخلف والفساد ، وقدم لنا رؤيته لنلحق بركب الحضارة الإنسانية وقد تحدث في هذا البحث الذي جاء في ثلاثة مباحث عن حياته وشخصيته والعوامل المؤثرة فيه ، وفي المبحث الثاني عن طرق الإصلاح الحضاري وفقاً لرؤيته وحسب رأيه وفي المبحث الثالث تحدثت عن أسباب الخلف والجمود وكيف معالجتها على حسب ما يراه هذا المفكر ، وأخيرا جاءت النتائج التي كان من أبرزها أنه لا يمكن أن نلحق بركب الحضارة الإنسانية إلا بالتخلص من عقدة الاستعمار ومن خلال توجيه ثقافي فكري أخلاق ولا يمكن أن نخرج من شرنقة التخلف إلا بالتخلص من طغيان عالم الأفكار وعالم ا لأشخاص .

## الملخص بالإنجليزية

**This study came to talk about the ways of reform and renewal of civilization in the thought of a scientist and thinker of the contemporary scientists to draw a new way and a unique approach to the treatment of the reality of this nation, which is under the weight of underdevelopment and corruption, and gave us his vision to join the human civilization has talked in this research, And the second topic on the methods of civilizational reform according to his vision and according to his opinion. In the third topic I talked about the causes of the backwardness and the stagnation and how to deal with it according to what this thinker sees. Finally, the results were the most prominent being that we cannot join the human civilization a Not to rid itself of the colonial complex and through a cultural orientation of moral thought and cannot emerge from the cocoon of underdevelopment only to rid the tyranny of the world of ideas and the world of people**

## المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها من نعمة ، فالحمدلله منعم النعم ومزيل النقم وهادي الإنسان لأقوم الهدى ، والصلاة والسلام على سيد الأمم وباعث الهمم ، سيدنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آل وصحبه أجمعين ، وبعد :-

أعتبر مالك بن نبي من أبرز المفكرين المسلمين الذين ظهروا في القرن العشرين ؛ فالمفكر هو الذي يدرس ويتأمل ويقارن ويحلل المشكلة إلى أجزائها ، ثم ينسق ويركب ويجتهد في إيجاد الحلول ، ولعل هذا الوصف ينطبق على قلة من المفكرين كان أكثرهم مفكرنا مالك بن نبي.

وقد ذكر كثير من الباحثين أن الحديث عن مالك بن نبي ليس هين ؛ لا لأنه عميق الغور ، غوَّاص في البحث والتنقيب ، أو لأن تتبع آرائه وأفكاره يحتاج إلى جهد ، بل لأنه يطرح أفكاراً وآراءً لا تتناسب مع ضحالة التفكير ، يقف الإنسان أمامها حائراً : من أين جاءته؟! وما هي الخلفية الثقافية التي جعلته يتبنى هذا الرأي أو ذاك؟! ؛ وهل هو مؤيد أم معارض ؟! وقد كان ذلك التردد وإعادة القراءة مرات ومرات حتى لا نظلمه ، وليستبين الحق وتتضح الصورة ، وتحل الإشكالات.[1]

ولذا في هذا البحث محاولة بسيطة لسبر غور هذا الرجل وبالأخص في جانب التجديد ومحاولة الإصلاح وبيان أسباب الجمود والتخلف عن

[1] محمد العيدة ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري

ركب الحضارة الإنسانية والذي تعاني منه الأمة، فكان البحث على النحو التالي:

***المبحث الأول: حياة مالك بن نبي وثقافته وعلومه.**

المطلب الأول: حياته الشخصية.

المطلب الثاني: العوامل المؤثرة في ثقافته.

***المبحث الثاني: طرق الإصلاح في فكر مالك بن نبي.**

الطريق الأول: الفهم الصحيح لمعنى الحضارة وحقيقة التقدم الحضاري.

الطريق الثاني: وجود منهج واضح للإصلاح و نظرية محددة للأهداف والوسائل وتخطيط للمراحل.

الطريق الثالث: التخلص من عقدة الاستعمار والصراع الفكري والخضوع لثقافة الغالب.

الطريق الرابع : تجاوز الاعتماد على الدراسات الاستشراقية لتراثنا والبناء على دراسات علمية خاصة بنا .

الطريق الخامس :الإيمان العميق بالمبدأ الذي يعتنقه المسلم هو نقطة البدء للإصلاح الحضاري .

الطريق السابع:التوتر الروحي، وهو الاندفاع في المبدأ والحماس له حتى يأخذ عليه مجامع نفسه ويملك عليه قلبه من أهم طرق الإصلاح.

الطريق السابع : بناء شبكة علاقات اجتماعية قوية ومتينة .

الطريق الثامن: توجيه الثقافة لبناء جيل مسلم تقوم على أكتافه الحضارة الإسلامية.

## المبحث الثالث: أسباب التخلف والجمود حسب رأي مالك بن نبي:

أولاً :القابلية للاستعمار.ثانيا :الشلل الأخلاقي . ثالثا :عدم الفعالية. رابعاً:طغيان عالم الأشخاص. خامسا : طغيان عالم الأفكار . سادسا: إشكالية الحق والواجب. سابعا : إشكالية التعالم والحرفية في الثقافة .

أما بالنسبة لأدبيات الدراسة فلم أجد أي دراسة أفردت جهود مالك بن نبي في محاولة التغيير والإصلاح في العالم الإسلامي ، سوى كتاب محمد العيدة بعنوان ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري " مالك بن نبي أنموذجا" وهناك دراسة لفهمي جدعان تناولت مفكرو القرن العشرين من المسلمين ومنهم مالك بن نبي وقد نقد مالك نقداً لاذعاً في مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي ، فكان لابد من دراسة تبين طريقة تفكير هذا المفكر الإسلامي الكبير ، وقد اعتمدت على منهجية الاستقراء فقد قمت باستقراء آراءه وأقواله من خلال كتبه ثم قمت من خلال المنهج التحليلي بتحليل هذه الآراء لنص إلى منهجه في التغيير والإصلاح وطريقته في البناء الحضاري .

**وأخيرا أرجوا من الله أن أكون قد وفقت في إعداد مادة هذا البحث وإسأل الله أن ينفع بها طلبة العلم والباحثين ، ولا أدعى في جهدي المتواضع هذا الكمال ، فكل عمل للبشر لا يخلو من العيب والنقص ولكن أدعي أني بذلت الجهد المستطاع. والحمد لله رب العالمين .**

## المبحث الأول : حياة مالك بن نبي وثقافته وعلومه .

### المطلب الأول: حياته الشخصية.

وُلد مالك بن نبي في مدينة قسطينة في الجزائر عام ١٩٠٥ ، ونشأ في أسرة فقيرة ؛ لأن جده لأبيه هاجر إلى طرابُلس الغرب احتجاجاً على الاستعمار الفرنسي وحمل معه كل أملاك العائلة ، هذا الميلاد جعله يتصل بالماضي عن طريق من بقي حياً من شهوده.

تعرَّف على تلاميذ ابن باديس من الشباب ، وشعر أنه – وإياهم – على خط فكري واحد ، وكان يقرأ (الشهاب) و(المنتقد) قبلها ولكنه لم يتصل بالشيخ ابن باديس ولا تتلمذ عليه [١]، وفي (تبسة) [٢] حيث تعيش أسرته لم يتتلمذ أو يؤيد تأييداً قوياً الشيخ العربي التبسي ، وكأن هناك حاجزاً نفسياً بينه وبين المشايخ ، ويعترف بعد ربع قرن : "حينما تفحصت شعوري حول هذا الموضوع تبين لي أن السبب يكمن في مجموعة من الأحكام الاجتماعية المسبقة ، وفي تنشئة غير كافية في الروح الإسلامي" ، ويتابع الحديث عن الأسباب الاجتماعية : "فأحكامي المسبقة ربما أورثتنيها طفولتي في عائلة فقيرة في قسطينة ، زرعت لاشعورياً في نفسي نوعاً من الغيرة

---

[١] هو الإمام **عبد الحميد بن باديس** 1358-1307) هجرية) الموافق لـ ( ٠٤ ديسمبر-1889 16أبريل1940 (من رجال الإصلاح في الوطن العربي ورائد النهضة الإسلامية في الجزائر، ومؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. **أنظر** :الشيخ عبد الحميد بن باديس والحركة الإصلاحية السلفية في الجزائر في العصر الحديث» للدكتور تركي رابح، «الأعلام» للزركلي (٦٠/٤)، «ابن باديس حياته وآثاره» للدكتور عمار طالبي (٧٢/١)،.

[٢] مدينة من مدن الجزائر .

والحسد حيال العائلات الكبيرة التي كان الشيخ العربي ينتمي إلى واحدة منها" ، "وكنت أعتقد أنني أقرب إلى الإسلام بالبقاء قريباً من البدوي أكثر من البلدي الرجل الذي يحيط به وسط متحضر ، وكان الشيخ العقبي يبدو في ناظري بدوياً، بينما يبدو الشيخ ابن باديس بلدياً"، فقد تبين لنا أسباب جفائه لزعماء جمعية العلماء وهو شاب . [1]

بعد الانتهاء من الثانوية عمل متطوعاً في محكمة (تبسة) وهناك تعرف – من خلال تجوال أعضاء المحكمة في الريف – على رجل الفطرة الذي يستضيف أعضاء المحكمة رغم أنهم حكموا عليه بالضرائب والغرامات، ثم عمل موظفاً في محكمة (أفلو) التي تقع جنوب وهران في غرب الجزائر ، وهناك أيضاً تعرف على الكرم العربي والفطرة الصادقة: "فالناس في المدن لا يستطيعون فهم هذه العقلية أو ذاك النبل في عروق البدوي" ،وتعرف على فضائل الشعب الجزائري قبل أن يفسده الاستعمار ، ثم انتقل للعمل في محكمة (شاتودان) ولم يطق معاملة موظفيها ؛ فاستقال وتوجه إلى فرنسا وذلك عام ١٩٣٠م في محاولة للانتساب إلى معهد الدراسات الشرقية ، ولكن طلبه رُفض ؛ لأن الدخول لهذا المعهد – كما يقول هو – لا يخضع لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي[2].

انتسب إلى مدرسة اللاسلكي ودرس الكهرباء والميكانيكا ، وهذه الدراسة أعطته بُعداً آخر يقول عنها : "فتح لي عالم جديد يخضع فيه كل شيء إلى المقياس الدقيق للكم والكيف ، ويتسم فيه الفرد – أول ما

[1] مالك بن نبي ، مذكرات شاهد للقرن ، ص١٣١.

[2] مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، ص١٥.

يتسم –بمَيزات الضبط والملاحظة" ولكن دخوله مع العمل الطلابي المغربي وتعرفه على صديقه (حمودة بن الساعي) بدأ يغير من اتجاهه العلمي إلى التعمق في الدراسات الاجتماعية.

تخرج مهندساً كهربائيا سنة١٩٣٥ ، وبدأ رحلة شاقة في البحث عن عمل في البلاد العربية وغيرها ، وكانت الأبواب توصد في وجهه دائماً ، وسبب ذلك في رأيه هو أنه أراد تمزيق شبكة الاستعمار ولم يدرِ أن سمك القرلق (الاستعمار كما سماه) كان له بالمرصاد.

زار الجزائر في هذه الفترة ، ولاحظ وقوع الناس في حُمى الانتخابات والدجل السياسي بعد المؤتمر الجزائري.

سافر إلى فرنسا في مطلع الحرب العالمية الثانية مودعاً الجزائر بهذه العبارة :" يا أرضاً عقوقاً ! ؛ تطعمين الأجنبي وتتركين أبناءك للجوع ، إنني لن أعود إليك إن لم تصبحي حرة !" ، وبقي في فرنسا حتى عام ١٩٥٦ أصدر فيها باللغة الفرنسية : "الظاهرة القرآنية" ، "شروط النهضة" ، "وجهة العالم الإسلامي" ، "الفكرة الإفريقية الآسيوية".[1]

زار مصر عام ١٩٥٦ وبقي فيها حتى عام ١٩٦٣، وكان له في مصر تلاميذ وأصدقاء، وزار خلالها سورية ولبنان ألقى فيها المحاضرات حول موضوع "مشكلات الحضارة"، وفي القاهرة أصدر: "حديث في البناء الجديد"، "مشكلة الثقافة"، "في مهب المعركة"، "تأملات في المجتمع العربي".

[1] المرجع السابق نفسه ، ص١٣٢.

عاد إلى الجزائر عام ١٩٦٣ حيث عُين مديراً عاماً للتعليم العالي وأصدر في الجزائر : "آفاق جزائرية" ، "يوميات شاهد للقرن" ، "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" ، "المسلم في عالم الاقتصاد". استقال من منصبه عام ١٩٦٧ وتفرغ للعمل الفكري ، توفي في ١٩٧٣/١٠/٣١ في الجزائر – رحمه الله وغفر له –[١].

- **شخصيته:** يجتمع في مالك بن نبي خطان رافقاه طوال حياته ، فهو شخصية عاطفية ، خيالية أحياناً ، يفكر بأحلام الفلاسفة ويهيم بالتجريد. يقول عن نفسه : "أنا شديد التأثر بالحدث ، وأتلقى صدمته بكل مجامعي وبانفعالية تستطيع أن تنتزع مني دموع الحزن حين يثير الحدث الحبور من حيث المبدأ" وقد بكى عندما اندحر الجيش الفرنسي أمام ألمانيا عام ١٩٤٠ مع أنه يكره الاستعمار الفرنسي ، ويعلق هو على هذا التصرف : "رأيت في ذاتي عنصراً آخر كشف كل التعقيد في ضمير مسلم" ولم يوضح ما هو هذا العنصر الآخر ولكن يبدو لي أنه عدم التوازن بين القيم الأخلاقية وأيها يصلح لتطبيقه على الحدث ، وعندما سمع حديث والدته وذكرياتها عن الحج لم يستطع حبس دموعه فكان يتظاهر بالعطش ليخرج إلى الشرفة فيطلق العنان للدمع[٢].

---

[1] محمد العيدة ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري " مالك بن نبي أنموذجا " ، ص٣.

[2] مالك بن نبي ، مذكرات شاهد للقرن ، ص ١٣٤.

له شخصية حالمة أحياناً ، فعندما يسمع بأنباء الخلاف بين الملك عبد العزيز آل سعود وإمام اليمن يكتب رسالة إلى سفارة اليابان يدعو حكومتها للتدخل باسم التضامن الآسيوي لمساعدة ابن سعود حتى لا تتمزق الجزيرة العربية ، وطبعاً لم يستجب (الميكادو) لطلبه ومن يسمع كلامه وهو مجرد مواطن عادي لكنه حالم![1].

وفي الجانب الآخر نجد شخصية مالك الناقد المحلل الذي يمتلك القدرة الفائقة على النفاذ لأعماق المشكلة وبيان أسبابها ، من خلال النظرة العلمية الصارمة ، ومن خلال اطلاع واسع على الثقافة الغربية وكيف تنشأ الحضارات مع معرفة بواقع المجتمعات الإسلامية من خلال معرفته الشخصية بالمجتمع الجزائري ، وهو في مقارناته وتحليلاته يشبه سلفه المغربي المؤرخ ابن خلدون ، حيث تلتقط الذاكرة كل جزئية وكل حادثة ثم يبدأ التحليل والمقارنة ثم يخرج بالنتائج التي يرتضيها ، يقول عن سكان (أفلو) عندما عمل عندهم كمساعد في المحكمة :

"فملكية الإنسان لأرض ما تخلق في نفسه غرائز اجتماعية قد سلم منها الراعي ، ففي دعوى أمام القضاء في (تبسة) يستطيع كل فريق أن يقدم عشرة شهود زور بالمجان، وشهود كل واحد من الطرفين سيحلفان أنهما يقولان الحقيقة ، أما في (أفلو) فقد لاحظت الرجل يرفض غالباً أن يحلف ولو كان ذلك لدعم حقه الواضح"[2].

---

[1] محمد العيدة ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري " مالك بن نبي أنموذجا " ، ص١٢.

[2] مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، ص ٨٧.

**المطلب الثاني : العوامل المؤثرة في ثقافته :**

١ – وُلد مالك بن نبي في عصر سمع فيه من جدته لأمه قصص الاحتلال الفرنسي للجزائر ، وعاش مأساة بلد يخطط الاستعمار لشل فاعليته ، ومن ثم لتحويله إلى فريسة سهلة الالتهام ، وكيف أصبحت العائلات العريقة فقيرة ، ذليلة بسبب الاستيلاء على أراضيها ، وكان اليهود هم الواسطة لانتقال الملكية من أبناء البلاد إلى أبناء المستعمر ؛ فاليهودي دائماً كان يقرض بفائدة ٦٠% ، وعندما درس في فرنسا وعاش مع الجالية الجزائرية رأى الاستعمار من زواياه المختلفة ، وشعر بخبث الأساليب التي يقوم بها لتمزيق العالم الإسلامي.

٢ – القراءات الغزيرة المتنوعة ، فقد بدأ بالقراءة منذ أن كان صغيراً في الابتدائية ، وقرأ كتب علم النفس والاجتماع وهو لا يزال في المرحلة الثانوية ، وكان يقرأ كل الصحف التي تصل إلى قسطين أو تبسة ، ولا شك أن هذا الاطلاع الواسع على الثقافة الغربية هو في جانب منه على حساب الثقافة الإسلامية وكان له أثر عليه أيضاً ، فكثرة قراءاته لأعمال الفلاسفة جعلته يعتبر عصر الفارابي عند المسلمين هو عصر خلق الأفكار مع أن الفارابي وأمثاله لم يقدموا شيئاً يذكر للحضارة الإسلامية ، وكانت نغمة (الإنسانية) و(العالمية) سائدة عند الفلاسفة الغربيين ، ونجد مالك يكررها فيتكلم عن حضارة اليوم التي تسير نحو الشمول والعالمية ويستعمل أحياناً عباراتهم التي هي نتيجة انفصام عندهم بين الدين والعلم مثل قوله : "إن الطبيعة توجد النوع..." أو وهبته الطبيعة.

٣ – ثقافته الإسلامية : يعترف مالك بأن الذي كان يرده عن الغلو في هذا الاتجاه (القراءات الكثيرة للفكر الغربي) هو ما كان يتلقاه من دروس في التوحيد والفقه ، وقراءاته للكتب التي تأتي من المشرق العربي مثل : "الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق" لأحمد رضا ، و"رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده ، و"طبائع الاستبداد" للكواكبي ، والمجلات الإسلامية الجزائرية مثل (الشهاب) التي يصدرها الشيخ ابن باديس ، ولا شك أن ثقافته الشرعية ضعيفة ولكن عنده اطلاع على التاريخ الإسلامي وقدرة على فهم الآيات والأحاديث التي تتعلق بسنة التغيير الاجتماعي وبسبب عمق تفكيره وتحرُّقه على العالم الإسلامي كان يرى أن بذرة عودة الوعي للأمة الإسلامية هي في حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي يعتبرها امتداداً لما قام به ابن تيمية في التجديد ، ولنفس السبب أيد جمعية العلماء في الجزائر وكان يعقد الأمل عليهم في الإصلاح وإن اختلف معهم بعدئذ ، ولبُعده عن المشرق ولضعف ثقافته الشرعية كان يمجّد جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده ويرى أن الأول هو مصلح الشرق ؛ فثقافته الإسلامية خليط من آراء مدرسة الأفغاني ومحمد عبده ومن فهمه لآيات القرآن وسنن التغيير ، وأنه لابد من الرجوع إلى طريقة القرآن والسنة في رفع الناس إلى مستوى الروح كما يعبر هو ، والحقيقة أنه يجمع أشياء متناقضة وإن بدت منسجمة بالنسبة له.

٤ – ومن المؤثرات الواضحة في شخصيته ما عاناه من الفقر الشديد في طفولته ، وحياة النَّصَب والتعب التي عاشها في شبابه

بحثاً عن العمل ، سواء في الجزائر أو فرنسا ، فقد عمل بعد تخرجه من الثانوية في مصنع للأسمنت في مدينة (ليون) بفرنسا ، فكان يحمل الأكياس على ظهره ، ومرة باع بعض ملابسه حتى يوفر وجبة غداء ، وبعد تخرجه من الهندسة طرق أبواب العمل في الدول العربية والإسلامية ولكن دون جدوى.

هذه الأوضاع النفسية جعلته يكره – وهو صغير – الدور المترفة التي كانت تفضح أمام ناظريه بؤس أقاربه ، وأحكامه المسبقة كانت بسبب العيش في عائلة فقيرة زرعت لاشعورياً في نفسه من الغيرة والحسد حيال العائلات الكبيرة، وكان يعجبه مطالعة صحيفة (الإقدام) التي يصدرها الأمير خالد الجزائري والتي كانت تركز على موضوع الفلاح الجزائري وبؤسه[1].

هذه هي شخصيته بكل جوانبها وقد رأينا العوامل المؤثرة في شخصه والتي كان لها الدور الأكبر في أنتاج مفكر عالمي أبدع في تحليل مشاكل عالمنا الإسلامي ومن ثم إيجاد الحلول الملائمة ، وهو بهذا يتميز عن كثير من المفكرين أنه لم يكن ناقداً بدون أن يقدم حلاً أو حالماً بدون أن يكون الحلم قابل للتحقيق ، وفيما يأتي سنرى طريقة ومنهج هذا المفكر في تشخيص المرض وإيجاد الدواء .

[1] مالك بن نبي ، مذكرات شاهد للقرن ، ص٢١٩.

## * المبحث الثاني : طرق الإصلاح الحضاري في فكر مالك بن نبي:

ينطلق فكر مالك بن نبي في الإصلاح الحضاري من سؤال لا يزال يلح على المسلمين منذ أن صدموا بالحضارة الغربية وهى تطرق الأبواب وتدخل من كل المنافذ ، وكان السؤال: ما هي أسباب تقهقر المسلمين؟ وما هي شروط النهضة ليستعيد المسلمون دورهم وفاعليتهم المفقودة وليكونوا شهداء على الناس؟. وكانت الإجابة عن هذا السؤال هي محور كتابات وأقوال الذين تصدوا لحركة الإصلاح والنهوض بالأمة على اختلافهم في القرب أو البعد عن الصواب. بل إن كثيراً منهم كانوا "لا يعالجون المرض بقدر ما يعالجون أعراضه" ، وأما الإجابة المتبادرة: (لابد من العودة للدين) فهي وإن كانت صحيحة بلا شك ولكنها بحاجة إلى تفاصيل، فعندما ندخل في عمق الموضوع ونبدأ بالعمل سنجد أن هذا المسلم المقتنع بهذا الجواب يحمل بين جنبيه أمراضاً اجتماعية وفكرية ونفسية تعيقه عن فهم الكتاب والسنة فهماً صحيحاً ، ليتحول هذا الفهم إلى فعالية للتغيير ، وهذه الأمراض كانت نتيجة تراكم عصور من الابتعاد عن العلم النافع والعمل المثمر ، فالأمة الإسلامية (كالفارس الذي أفلت الركاب من قدميه ولم يسترده بعد ، فهو يحاول أن يستعيد توازنه )[1].

[1] مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص٥٩.

كيف نصوغ عقل هذا المسلم مرة أخرى حتى يعود إلى فعاليته؟ من هنا ينطلق ابن نبي ليقول: "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية ، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية ، ما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها". فالمسلم الآن لا يعيش حالة (حضارة) وإنما هو من بقايا حضارة وهي الحضارة الإسلامية طبعاً ، ولابد من إدخاله مرة ثانية في دورتها، فالإنسان السابق على الحضارة (العربي قبل البعثة مثلاً) هو مثل جُزَيء الماء قبل وصوله إلى خزان ينتج الكهرباء ، فهذا الجزيء منطو على طاقة مذخورة ، قابل لتأدية عمل نافع ، ولكن هذا الجزيء يفقد طاقته بعد أن استنفذها في إنتاج الكهرباء ، وإذا أردنا أن نعيد له قوته علينا أن نرفعه مرة ثانية إلى مكان عال، أو أن يتبخر ثم يتكثف ليعود جزءاً من طاقة مائية تقع قبل خزان معين"[1].

ورفع المسلم إلى هذا المكان السامق لا يتم إلا بشحنة إيمانية عالية وأخلاق كأخلاق الصحابة، ولا يتم هذا إلا (بتوتر روحي) حسب تعبير مالك.

ومن هنا نجد جملة طرق الإصلاح الحضاري والتي يرى مالك بن نبي أنها تعيد بعث الأمة حضاريا وفكرياً وتصلح أحوالها، ومن أهم هذه الطرق ما يأتي:-

[1] مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص ٢٣.

**الطريق الأول : الفهم الصحيح لمعنى الحضارة وحقيقة التقدم الحضاري :**

يعتبر مالك بن نبي أن عدم الفهم السوي لمعنى الحضارة أورث مشكلة تعيشها الأمة وهي مشكلة الحضارة، فحتى نتقدم تقدماً حضارياً ونصلح أحوالنا فلابد من فهم معنى الحضارة وكيفية التحضر، فما هي مشكلة الحضارة عنده و ماذا يقصد بالحضارة؟

يرى مالك أن الحضارة "نوع الشروط الأخلاقية والمادية، التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده – في كل طور من أطواره –وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية" ، أو: "هي : إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ" ، "هي ليست كل شكل من أشكال التنظيم للحياة البشرية في أي مجتمع كان ، ولكنها شكل نوعي خاص بالمجتمعات النامية واستعداد هذه المجتمعات لأداء وظيفة معينة" "،وهي جوهر الوجود للمجتمع، وعكسها هو: الهمجية والعودة إلى البدائية المترحلة" ، فالعرب انتقلوا بالإسلام إلى حضارة ، والشعوب الأخرى انتقلت بعقيدة من العقائد إلى حضارة ، فهي قدرٌ محتوم لمجتمع يتحرك لبناء نفسه ولأهداف معينة[1].

أما العوامل التي تشكل الحضارة ؛ فقد صاغها على شكل المعادلة التالية:

ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت. ولكن هذه المعادلة لابد لها من مُركّب أو مفاعل ، وهذا المركب هو (الدين) سواء كان ديناً حقاً

[1] المرجع انبي، ص٨٤.

كالإسلام، أو بقايا دين أو عقيدة تبلغ عند أصحابها مبلغ الدين في الحماسة لها والتضحية في سبيلها.

"لكي نقيم حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات ، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها" ، فالحضارة لا تستورد ولا تفصل لكل أمة على مقاسها ، وهي التي تلد منتجاتها وليس العكس[1].

من هذه التعريفات يتبين لنا أن:ابن نبي له تعريفه الخاص للحضارة، فهي شكل راق من الحياة الأخلاقية والمادية، وهناك حضارة إسلامية، حضارة غربية... الخ.

وحسب تعريفه هذا: فإن الصين الحديثة أقلعت باتجاه حضارة ،فقد اجتمع لها الحماس للفكر واستخدام التراب والوقت، وقبلها اليابان وروسيا... ورغم أهمية هذه المعادلة بالنسبة للعالم الإسلامي الذي لم يقلع بعد. ورغم نقد ابن نبي للحضارة الغربية المادية وجشعها، فإن رائحة المادية تفوح من هذه التعريفات، فروسيا أقامت نهضتها الصناعية بعد أن قتلت وشردت الملايين، وقُل مثل ذلك في الصين، فهل المهم هو استغلال الوقت والتراب ولو على حساب الإنسانية؟! وأما العنصر الأخلاقي أو الروحي أو ما أسماه (الفكرة الدينية) التي يكون أصلها من السماء ، فقد استوحاها من (كسرلنج) الذي يقول: "وكان أعظم ارتكاز حضارة أوربا على روحها الدينية"[2].

[1] مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص ٨٤.

[2] نقلا من كتاب مالك بن نبي، شروط النهضة، ص١٠٦.

**ويعرف الروح الدينية: "ولست أعني بالروح ذلك الشيء الدال على منطق أو عقل أو مبادئ مجردة ، وإنما هو بصفة عامة: ذلك الشعور القوي في الإنسان ، والذي تصدر عنه مخترعاته وتصوراته وتبليغه لرسالته ، وقدرته الخفية على إدراك الأشياء".**

**فهذا المفكر يعتبر أن "الروح المسيحية" و"مبدأها الخلقي" هما القاعدتان اللتان شيدت عليهما أوربا سيادتها التاريخية ، وجاء مالك وأخذ عنه هذه الفكرة ووضعها قاعدة عامة لكل الحضارات ، وأخذ عنه أيضاً وعن (شبنجلر)[1] تقسيمه لدورة الحضارة إلى المراحل الثلاث: روحية ،**

---

[1] (**وسفالد أرنولد غوتفريد شبينغلر**) بالألمانية Oswald Arnold Gottfried ": (Spengler)مايو 1880 ــ 8 مايو 1936 " مؤرخ وفيلسوف ألماني شملت اهتماماته أيضاً الرياضيات والعلم والفن. يعرف بكتابه "انحدار الغرب) "بالألمانية Der Untergang des : (Abendlandes، وترجم كتابه إلى اللغة العربية بعنوان تدهور الحضارة الغربية [٤] الذي يعرض نظرية عن سقوط وازدهار الحضارات وأن ذلك يتم بشكل دوري، ويغطي كل تاريخ العالم وقدم نظرية جديدة جعل فيها عمر الحضارات محدوداً وأن مصيرها إلى الأفول ، ولعله تأثر بما كتبه ابن خلدون في هذا المجال[٥] بعد نشر كتاب "انحدار الغرب" سنة1918 ،[٦] أصدر شبينغلر كتاب "البروسية والاشتراكية) "بالألمانية Preussentum : (und Sozialismusسنة1920 ، وفيه عرض صورة عضوية من الاشتراكية والسلطوية. وقد شهدت فترة الحرب العالمية الأولى وفترة ما بين الحربين العالميتين خصوبة في إنتاج شبينغلر الفكري، وشهدت تأييده لسيطرة ألمانيا في أوروبا .وقد اتخذ الاشتراكيون القوميون من شبينغلر منظّراً لأفكارهم، غير أنهم ما لبثوا أن نبذوه سنة 1933 عندما أبدى تشاؤمه بشأن مستقبل ألمانيا وأوروبا، ورفضه تأييد الأفكار النازية المتعلقة بالتفوق العرقي، ولإصداره كتاباً ينتقدهم بعنوان "ساعة الحسم) "بالإنجليزية(The Hour of Decision :أنظر : تدهور الحضارة الغربية ج١ ج٢ ترجمة أحمد الشيباني وطباعة دار مكتبة الحياة– بيروت .

وعقلية، وغرائزية [١]، وإن كان ابن خلدون قبلهم قد قال بمثل هذا ولكنه تكلم على الدول ولم يتكلم عن الحضارات ، ومقولة:" أنه لا توجد حضارة إلا وللدين أثر فيها" [٢] صحيحة من حيث الجملة ،وقد قال بها ابن تيمية أيضاً ، ولكن يبقى الإشكال هو: وضع الإسلام موضع المساواة مع أي فكرة دينية واعتباره شعلة أخلاقية تصلح لتركيب المعادلة ، هنا موضع الخطورة والنقص ، فالمفكر (كسرلنج) [٣]عندما يتكلم عن النصرانية يتكلم عنها كجزء من الأجزاء المكونة للحضارة الغربية ، ولكن الإسلام دين شامل وليس مبدأ أخلاقياً فحسب ، وقاعدته الأساسية هي التوحيد الذي ينبني عليه الأخلاق والآداب والتشريعات... وما يعتبر فناً رائعاً عند من يكتب عن الحضارات يعتبر حراماً في الإسلام [٤].

والواقع أن ابن نبي غير واضح في هذه المسألة ، فنراه واعياً لمسألة الشمولية عندما يعتبر العصر الراشدي هو النموذج دائماً وتعاطفه وتأييده للحركات الإسلامية، مثل: حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وحركة جمعية العلماء في الجزائر ، وربما يكون ضعفه في العلوم

---

[1] **Spengler, O., "The Decline of the West", Trans. into English by Charles Francis Atkinson, Allen & Unwin, London, 1959.**

[٢] ابن خلدون ، المقدمة ، ج٢، ص٧

[٣] أنظر : مقال للدكتور محمد جلوب الفرحان بعنوان " حضور فيلسوف التاريخ الألماني المعاصر

هرمان دي كيسرلنج " في خطاب مالك بن نبي ، منشور على موقع https://drmfarhan.wordpress.com

[٤] مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص ١٢٣.

الشرعية هو الذي جعله يقع في أخطاء توحي بعدم الشمولية، وخاصة في موضوع تطبيق الشريعة الإسلامية[1].

إن ارتفاع المسلم إلى مستوى (حضارة) "فيتعلم كيف يعيش في جماعة ، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية" ، ويتعلم كيف يكون لبنة في (البنيان المرصوص)، هذا الارتفاع لابد منه وهو المطلوب الآن ، بينما نرى في الواقع أن المسلم الذي لا ينقصه الإخلاص لا يستطيع مجابهة مشاكله وكيف يحلها ، لأنه تعلم وأخذ شهادات مدرسية ولكنه لم يتثقف ، ولم يتشرب من بيئته في المنزل والمدرسة كيف يكون فعّالاً ، وكيف يقوم بأعمال مشتركة مع الآخرين ، والإسلام عندما رفع العرب إلى مستوى (حضارة) عدّل من طباعهم حتى تكون وسطاً ، ووضعهم بين حدّي الوعد والوعيد ، وعدل من غرائز الإنسان ولم يكبتها (حرّم الزنا وشجع الزواج) ؟، وهكذا دخل العربي وغير العربي في حضارة الإسلام ، وأصبحت شخصية المسلم شخصية سوية ليس فيها عُقد نفسية أو اجتماعية ، وعندما عُزل خالد بن الوليد- رضي الله عنه- عن قيادة الجيوش في الشام لم يُحدث عزله أي مشكلة ، ولو حصلت هذه الحادثة بعد بضعة عقود من السنين لزلزلت الأرض.

والمسلم الذي هو (خارج من حضارة) -كما يعبر مالك بن نبي- يتصرف بأنانية مفرطة ، قد تضخمت عنده (الأنا)؛ فلا يرى إلا نفسه ولا يهتم إلا بمصلحته الخاصة ، ولا يستطيع أن يقوم بعمل تعاوني مع غيره،وإذا ذهبت إلى منزل هذا المسلم (الطيب) ستجد آثار

[1] أنظر مجلة البيان ، العدد الأول ، سنة ٢٠٠٢م، ص١١٦.

تضييع المال ودون قصد منه في كثير من الأحيان، فأولاده يحطمون كل شيء ، وبقايا الطعام تتناثر فوق السجاد الفاخر ، والأم الجاهلة تنظر إليهم وكأن شيئاً لم يكن ، ولأنه لم يرتب أموره الاقتصادية تذهب أمواله إلى أصحاب المصانع في الغرب والشرق لتكون عوناً لهم على المسلمين ، مع أنه يعلم أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– نهانا عن "إضاعة المال". وعندما أراد بلد كأندونيسيا النهوض باقتصاده استدعى الخبير المشهور (شاخت) ، ولكن خطط هذا الخبير لم تنجح في أندونيسيا ونجحت في ألمانيا الغربية، والسبب هو:أن الشعب الأندونيسي لم يرق بعد إلى مستوى (حضارة).

وعندما يتم استيراد الأجهزة الحديثة من أفضل ما أنتجته التقنية الغربية لا يستفاد منها كثيراً في بلادنا، لأنه لا يوجد جو اجتماعي ثقافي يحيط بها ويحفظها، فالنظم الاستبدادية جعلت العقول العلمية تهاجر إلى الغرب.[1]

هذا ما يقصده مالك بن نبي عندما يبدأ ويعيد في موضوع الحضارة ، وأن المسلم لا يعيش ولا يتنفس الثقافة الملائمة له ، وإنما يحمل أمراض بيئته المتخلفة وهو لا يشعر، ونحن نوافقه من هذا الجانب ، ولذلك سنبدأ بعرض بعض المعوقات التي يراها مانعة من دخول المسلم في (بادرة حضارة) وتعرقل مساعيه للانطلاق والنهوض.

[1] مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ص١١٤.

**الطريق الثاني : وجود منهج واضح للإصلاح و نظرية محددة للأهداف والوسائل وتخطيط للمراحل .**

كان تشخيص أمراض العالم الإسلامي عند مالك بن نبي مقدمة للبحث عن العلاج، أو للبحث عن أسس النهضة، وكيف تبدأ؟ ومن أين تبدأ؟ إن بلداً مثل اليابان بدأ نهضته في منتصف القرن التاسع عشر وهي نفس الفترة التي بدأ الحديث فيها عن النهضة في العالم الإسلامي ، فلماذا كان هذا البطء في (الإقلاع)؟.

السبب برأى مالك بن نبي هو عدم وجود منهج واضح للإصلاح ولا نظرية محددة للأهداف والوسائل وتخطيط للمراحل. "فإذا حللت جهود المصلح الإسلامي وجدنا فيها حسن النية ، ولكنا لا نجد فيها رائحة منهج " "وليس هناك تحليل منهجي للمرض وليس إلا أن عرف المريض مرضه فاشتد في الجري نحو الصيدلي –أي صيدلي– يأخذ من آلاف الزجاجات ليواجه آلاف الآلام" "وواقعنا الآن إما فكرة لا تتحقق أو عمل لا يتصل بجهد فكري"[1].

ويقرر ابن نبي أن الذين كتبوا في أوائل النهضة كتابات جيدة مثل الشيخ محمد رشيد رضا لم يستفد منها كثيراً ولم تنقح ويؤخذ الايجابي منها ، ويبنى عليه ، وكذلك الذين جاءوا من بعده لم يكن هناك خطة علمية لدراسة أقوالهم وآرائهم ، وكأنما كل من يأتي يريد البدء من الصفر ، بل نستطيع القول : إن كثيراً من

[1] مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص٣٥.

الأخطاء التي وقعت سواء في مجال الدعوة أو غيرها إنما كانت بسبب غياب المنهج أو عدم الالتزام بمنهج [1].

فعدم وجود منهج واضح للإصلاح و نظرية محددة للأهداف والوسائل وعدم التخطيط للمراحل هو من أهم أسباب التراجع الحضاري، كما يرى مالك بن نبي.

**الطريق الثالث: التخلص من عقدة الاستعمار والصراع الفكري والخضوع لثقافة الغالب.**

يبين مالك أن الاستعمار وعقدة الاستعمار كان كارثياً على الأمة ومن أخطر أسباب التراجع الحضاري الذي تعيشه السياسي،وإن عرض مشكلة الاستعمار يبدو أكثر أهمية إذا علمنا أنه ركز هجومه على العالم الإسلامي، بينما كان أقل شراسة ولؤماً مع الشعوب الأخرى ، وحاول إجهاض أي عمل إسلامي مثمر ، واستخدم أخبث الوسائل ومنها الوسائل الفكرية.

ويرى بعض الباحثين أن مالك بن نبي وإن كان ممن لا يعلقون أخطاء وتقصير المسلمين على شجب (الاستعمار) وحده بل يهتم بالعوامل الداخلية ، ويرى أنها الأساس في البحث والتحليل ، إلا أنه خبير بخفايا هذا الاستعمار ومواقفه من قضايا المسلمين ، لذلك جاءت ملاحظاته وتعليقاته على هذا الجانب فيها عمق ومعاناة ، فقد قرأ الكثير وعانى الكثير من استعمار فرنسا للجزائر ، وهو يرى أننا إذا أردنا أن نتقصى الحركة الاستعمارية من

[1] مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ص٨٤.

أصولها فلا بد أن ننظر إليها كعلماء اجتماع لا كرجال سياسة ، فظاهرة الاستعمار من طبيعة الرجل الأوربي ، فكلما وقع اتصال بين الأوربي وغير الأوربي خارج إطار أوربا فهناك (موقف استعماري) بينما نجد في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية أن رحلات ابن بطوطة وأبو الفداء والمسعودي لم تثر شهيتهم للاستعمار، ورحلات مثل هذه تثير شهية الأوربي .[1]

وحتى بعض الأفراد الغربيين الذين يشاركون في المعركة ضد الاستعمار إنما يشاركون مادامت في النطاق السياسي ، وسرعان ما ينعزل عنها حينما تأخذ طابع الصراع الفكري ، فالرجل المستعمَر لا يحق له الدخول في الميدان الفكري[2].

وفي ميدان الصراع الفكري وخاصة مع الشباب المسلم الذي يدرس في الغرب نرى الاستعمار يستخدم بخبث منطق الفعالية وخلاصته : (بما أننا نحن المسيطرون ونحن الأقوى إذن فأفكارنا صحيحة).

"ويعتبر هذا اللبس المفروش في أعماق نفسية هذا الشباب هو النواة التي تدور حولها جميع دسائس الصراع الفكري ومناوراته". وقد يرفع الاستعمار أمام أعين المستعمرين شعاراً صحيحاً وهو يعلم أن المستعمرَ سيرفضه لأن الذي رفعه عدو، وبهذا يكون قد صرفه عن عمل إيجابي قد يفكر فيه في المستقبل.

---

[1] محمد العيدة ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري " مالك بن نبي أنموذجا " ،تقديم : عمر عبيد حسنة ، سلسلة كتاب الأمة من منشورات مركز البحوث والدراسات/ قطر.

[2] مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، ص١٦.

يروي مالك بن نبي تجربة من تجاربه فيقول : "انعقد في باريس مؤتمر العمال الجزائريين بأوربا، وبهذه المناسبة تقرر من لدن المشرفين على المؤتمر توزيع كتيب لصاحب هذا العرض تناول فيه مشكلة من مشاكلنا اليوم ، ولكن أصحاب الاختصاص في الصراع الفكري لم يفتهم أن يسدوا الطريق على الأفكار المعروضة ، ولذا وجهت الدعوة إلى السيدة الألمانية التي كتبت (شمس الله تشرق على الغرب) وفيه مدح وتمجيد للحضارة الإسلامية ، وتقدمت السيدة وقدمت كتابها للمؤتمر ، فانتقل على الفور بروحه من مجال المشكلات إلى أبهة وأمجاد الماضي الخلاب"[1].

ومن وسائله الماكرة ، التي لا يزال يتقن استعمالها رميه للمسلم بشتى الاتهامات ، بل يحاول الإيحاء بأن المسلم منبوذ القرن العشرين ، وفي هذه الحالة يصبح سلوك المسلم ردود أفعال، وترفع عنده توتر طاقات الدفاع حتى يكون في حالة توتر شاذة ، ويعيش إما مُتهِماً أو مُتَهماً، وفي هذه الظروف فإن مختبرات الاستعمار تصرف كل إمكانيات المسلم إلى معارك وهمية ، يُسمع فيها قعقعة السلاح ودوي الحرب ولكنها معارك مع أشباح ، والمسلم يظن أنه انتصر ويرتاح نفسياً ، والتاريخ الإسلامي الحديث لا يخلو من هذه المعارك الوهمية كتلك التي خاضها الأفغاني ومحمد عبده ضد أرنست رينان وجبرايل هنوتو ، والمشكلة ليست في الدفاع عن الإسلام ولكن في تعليم المسلمين كيفية الدفاع عن أنفسهم"[2].

---

[1] مالك بن نبي ، أنتاج المستشرقين ، ص١٧.

[2] مالك بن نبي، الصراع الفكري، ص٦٨.

لقد تدخل الاستعمار في كل شيء حتى لا يترك فرصة لأي بعث إسلامي ، فكانت الإدارة الفرنسية في الجزائر هي التي تعين المفتي والإمام لا طبقاً لمشيئة جماعة المسلمين بل تبعاً لهوى المستعمرين ، وبذلك تجمع في يدها أنفذ وسائل الإفساد ، فاختيار رجل يؤم الناس في المسجد لا يكون بناء على تميزه بضمير حي أو علم بأصول العقيدة ، بل يراعى في ذلك ما يقدمه للإدارة من خدمات ، حتى كأنه (جاويش) صلاة ، ولا شك أن هذا التحكم في شعائر الدين مما يقض مضاجع أصحاب العقائد من المؤمنين لما يرون من أحداث غاية في الفساد : إمام جاسوس، ومفت فاسد، وقاض مرتش، وغاية الاستعمار أن يجعل من الإسلام صورة عجيبة ، وبذلك يكدس العقبات والعوائق على طريق النهضة الإسلامية"[1].

إن مالك بن نبي كمفكر يهتم بشؤون النهضة والإصلاح ويشخص الأمراض الاجتماعية التي أصابت العالم الإسلامي والتي تعيقه عن النهوض ، فقد يكون المسلم صاحب فهم سليم ولكن فيه هذه الأمراض ، فهو يعالج هنا كالطبيب المتخصص.

١ –كان مالك بفطرته يعلم أن الرجوع إلى منهج خير القرون هو الصواب ، ولذلك انتقد منهج المدرسة الإصلاحية في إحيائها ( لعلم الكلام) يقول منتقداً الشيخ محمد عبده الذي "ظن كما ظن فيما بعد الدكتور محمد إقبال أن من الضروري إصلاح علم الكلام بوضع فلسفة جديدة حتى يمكن تغيير النفس ، بيد أن كلمة (علم الكلام) سيصبح قدراً مسلطاً على حركة الإصلاح الذي حاد بها جزئيا عن الطريق"

[1] المرجع السابق، ص٧٠.

"وعلم الكلام يمجد الجدال ويشوه المشكلة الإسلامية ، ويفسد طبيعتها ، حيث يغير المبدأ السلفي في عقول المصلحين أنفسهم".

٢ – إن مالك كغيره من المفكرين وكثير من المسلمين يظنون أن العقيدة هي الإيمان بالله ولا يفرقون بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، فقد يؤمن الإنسان بوجود الله ، ولكنه يعرض عن عبادته والخضوع لشرعه، والرسل دعت الأمم لعبادة الله وحده ، يوضح تصوره هذا قوله : " والمسلم – حتى ما بعد الموحدين – لم يتخل مطلقا عن عقيدته ، فلقد كان مؤمنا ، ولكن عقيدته تجردت عن فاعليتها ، وإن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي أن نشعره بوجوده ونملأ به نفسه "[١]. إن ضعفه في العلوم الشرعية جعله لا يتبين أهمية فهم التوحيد فهما صحيحاً ، وأن الخلط في هذا الموضوع هو أساس البلاء[٢].

**الطريق الرابع** : **تجاوز الاعتماد على الدراسات الاستشراقية لتراثنا والبناء على دراسات علمية خاصة بنا** :

يوضح مالك أن للمستشرقين دور بارز في محاولة تشويه وتزييف التاريخ الإسلامي والطعن في الإسلام نفسه ، ولكن مالك بن نبي يركز على ناحية معينة في إنتاجهم كان لها أثر نفسي سيء في أذهان المسلمين. فبعض المستشرقين خلطوا في كلامهم بين المدح للإسلام وبين وضع السم في الدسم، هذا المدح جعل بعض المسلمين يستسلمون لنزعة الفخر والعيش مخدرين على أمجاد الماضي،

[١] مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص١٠٤.

[٢] محمد العيدة ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري " مالك بن نبي أنموذجا " ، ص١٨.

وكل من أراد الدفاع عن الإسلام استشهد بكلام لأحد المستشرقين ، "وهكذا يتبين لنا أن الإنتاج الاستشراقي بكلا نوعيه (المادحون والمفندون) كان شراً على المجتمع الإسلامي" "وعندما يعلن الاستشراف أنه لا نصيب للعرب في تشييد صرح العلوم ، ربما يؤدى بنا هذا الموقف المتطرف إلى تلافيه بسطحية نشاهد أثرها في إنتاج بعض المفسرين مثل طنطاوي جوهري" وهو التفسير الذي حول القرآن إلى مادة للعلوم ، والقرآن يوجد المناخ العقلي والنفسي للروح العلمية وليس هو كتاب جغرافيا أو فلك أو أحياء..

وأخيرا لابد أن نعلم أن المكر السيئ لا يحيط إلا بأهله "فالاستعمار الذي يهلك المستعمَرين مادياً يهلك أصحابه أخلاقياً ، وذلك ما يشهد به تاريخ أسبانيا منذ اكتشاف أمريكا" "إن الأمم الاستعمارية على الرغم من إدراكها لأخطار الاستعمار ، تعمى عن هذه الأخطار كأن هنالك قدراً محتوماً يقضي على يقظتها ووعيها".

ويصل إلى نتيجة ويقررها وهي أنه يجب أن نعلم أيضاً أنه رغم كل هذه العوائق ، استطاع المسلم التفلت من الأنشوطة التي أراد الاستعمار عقدها حول عنقه ، فما زالت فطرته وإسلامه يعطيانه القوة والدافع لتلمس الطريق الصحيح. [1]

[1] مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص٢١-٢٨.

**الطريق الخامس: الإيمان العميق بالمبدأ الذي يعتنقه المسلم هو نقطة البدء للإصلاح الحضاري .**

يقرر مالك بن نبي أن هذا الإيمان هو الذي يعطي المسلم قوة فوق قوته، واحتمالاً فوق احتماله، فيتغلب على المصاعب التي تعترضه، ويتحول هذا الإيمان إلى عاطفة قوية جارفة "فالروح وحدها هي التي تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم، فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطت لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك إلا أن يهوي بتأثير الجاذبية الأرضية""فأينما توقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل، ويفقد الإنسان تعطشه إلى الفهم وإرادته للعمل عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان، فالإيمان هو المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية والمسلم الذي يصل إلى درجة (التوتر الروحي) يشعر بالسعادة الغامرة عندما يبني أول مسجد في المدينة ويحمل (لَبِنَتَيْن) بدلاً عن واحدة ، "وفي هذه الحالة الروحية صبر بلال – رضي الله عنه – ولم تستطع قوة في الأرض أن تخفض إصبعه وهو يقول : أحد ، أحد".

هذا الإيمان يصنع المعجزات ، عندما تختفي الأنانيات ويشترك الجميع عن طواعية في بناء حضارة، وفي المجتمع الإسلامي الأول كان المنافقون وحدهم يتخلفون عن أي عمل فيه تعب أو نصب ، وكل الكتب والمحاضرات والخطب لا تكفي لإنشاء أمة لا ترتفع إيمانياً وأخلاقياً إلى درجة عالية، كما جاء في الحديث عن جندب بن عبد الله قال

: »تعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيماناً«.[1]

والقرآن الكريم وضع ضمير المسلم بين حدين هما: الوعد والوعيد، ومعنى ذلك أنه قد وضعه في أنسب الظروف وهذان الحدان ينطبقان على مفهوم الآيتين الكريمتين:

أ- {فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ}.{ الأعراف :٩٩}

ب- {إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ}.{يوسف :٨٧}

وبين هذين الحدين تقف القوة الروحية متناسبة مع الجهد الفعال الذي يبذله مجتمع طبقاً لأوامر رسالة".

ويستشهد بقول للدكتور (الكسس كاريل)[2] معبراً عن هذه الحقيقة: "فالأمل والإيمان والحمية تؤثر في الجسم تأثير البخار في العجلة المحركة" "وإذا نجحت إحدى الأفكار في تغيير سلوك البشر فذلك لأنها تنطوي على عناصر عاطفية إلى جانب العناصر المنطقية، إن الإيمان هو الذي يدفع الإنسان إلى العمل وليس العقل ، والذكاء يكتفي بإنارة الطريق ولكنه لا يدفعنا إلى الأمام.

---

[1] أنظر البخاري ، التاريخ الكبير ،ج٢، ص٧، حديث رقم " ٥٠٧".

[2] الكسس كاريل : (Alexis Carrel)كان طبيبًا جرّاحًا فرنسيا، ولد في 28 يونيو 1873 وتوفي في 5 نوفمبر 1944 في باريس، حصل على جائزة نوبل في الطب عام.1912 من أشهر مؤلفاته : الإنسان ذلك المجهول :((1935)) والذي يقول فيه : لست فيلسوفاً، ولكنني رجل علم فقط، قضيت الشطر الأكبر من حياتي في المعمل أدرس الكائنات الحية،والشطر الباقي في العالم الفسيح أراقب بني الإنسان، وأحاول أن أفهمهم, ومع ذلك فإنني لا أدعي أنني أعالج أموراً خارج نطاق حقل الملاحظة العلمية..

ويوضح مالك أن هذه الطاقة الإيمانية جعلت الفرد المسلم في عصر النبوة يقسم ثروته مع أخيه الذي هاجر إليه، فالمؤاخاة التي تمت بين المهاجرين والأنصار هي أول عمل تاريخي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده ، ولولا قوة شبكة العلاقات الاجتماعية لما استطاع المجتمع الإسلامي الإقلاع باتجاه حضارة، وفي حالة تمزق هذه العلاقات قد توجد العوالم الثلاثة (الأفكار، والأشخاص، والأشياء) ولكنها لا تغني شيئاً ، وقد يكون هناك مسلمون متحمسون وهناك أفكار ولكن الشبكة ليست قوية.

ويقرر إن قصة المؤاخاة ليست خيالية، ولا هي أقرب للخيال، فالإسلام دين واقعي، وليس صعباً أن يحقق المسلمون شيئاً من هذه (المؤاخاة) ، والآن توجد (إخوة إسلامية) خطابية وعظية ولكن لا يوجد (مؤاخاة) عملية فعلية ، من هنا المنطلق ، ومن هنا البداية[1].

**الطريق السادس: التوتر الروحي، وهو الاندفاع في المبدأ والحماس له حتى يأخذ عليه مجامع نفسه ويملك عليه قلبه من أهم طرق الإصلاح.**

التوتر السابع: والاندفاع في المبدأ أو الفكرة التي يحملها المرء والحماس لها حتى تأخذ عليه مجامع نفسه وتملك عليه قلبه ، هو بداية الإقلاع عند مالك بن نبي ، فلكي نبني حضارة ، أو نعيد دورة الحضارة لابد أن نصل إلى هذا المستوى من الاندفاع في تطبيق الإسلام.

[1] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص٢١-٢٨.

**الطريق السابع : بناء شبكة علاقات اجتماعية قوية ومتينة .**

**يبين مالك أنه يجب أن تعود شبكة العلاقات الاجتماعية لتربط العوالم الثلاثة (الأشخاص، والأفكار ، والأشياء) والمقصود بشبكة العلاقات هو القدرة على التعاون والتنسيق بين هذه العوالم الثلاثة واستخدام الأفكار والأشياء في محلها -المطلوب منها ، والأخلاق العالية التي في ظلها يستطيع المجتمع إنتاج حضارته ، والمؤاخاة الحقيقية هي إحدى الدعائم الرئيسية للإقلاع ، فالطاقة الروحية التي دفعت سعد بن عبادة لأن يقول: "يا رسول الله خذ من أموالنا ما شئت، وما أخذته منها أحب إلينا مما تركت" هي التي جعلت الصحابة يحفرون الخندق حول المدينة بأدوات بسيطة ، وبأيام قليلة، وهي التي كانت وراء اعتراف المرأة الغامدية[1] ، وهي تعلم أن عقوبة اعترافها هو الرجم بالحجارة ،**

[1] قصة الغامدية التي رجمها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في حديث بريدة رضي الله عنه وغيره ، حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كنت جالسا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاءته امرأة من بني غامد فقالت يا نبي الله إني قد زنيت وأني أريد أن تطهرني فقال لها ارجعي فلما كان من الغد أتته أيضا ، فاعترفت عنده بالزنا فقالت يا نبي الله طهرني فلعلك أن ترددني كما رددت ماعز بن مالك فوالله إني لحبلى فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ارجعي حتى تلدي فلما ولدت جاءت بالصبي تحمله في خرقة فقالت يا نبي الله هذا قد ولدت فقال اذهبي فأرضعيه ثم افطميه فلما فطمته جاءته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت يا نبي الله قد فطمته فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبي فدفع إلى رجل من المسلمين وأمر بها فحفر لها حفرة فجعلت فيها إلى صدرها ثم أمر الناس أن يرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتلطخ الدم على وجنة خالد بن الوليد فسبها فسمع النبي صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال مه يا

وعندما تاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فرح المجتمع الإسلامي بأسره، فهو مجتمع متماسك وشبكة العلاقات فيه قوية.

هذه الطاقة ضرورية للبدء ، لأن المسلم الآن قد لا يؤثر بالوسط المحيط به بقدر ما يتأثر هو بهذا الوسط.

في المجتمع الإسلامي الأول كانت شبكة العلاقات الاجتماعية على أعلى المستويات ، وعندما أفل نجم هذا المجتمع في القرون المتأخرة كان مجتمعاً مليئاً بالأفكار (الكتب والمكتبات) ومليئاً بالأشياء ، ولكنها لم تغن شيئاً لأن شبكة العلاقات كانت قد تمزقت وأصبح عالم الأشخاص عاجزاً عن أي نشاط مشترك ، وهذا هو الذي أشار إليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عندما قال: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل".[1]

ويحاول مالك بأسلوبه المعهود وهو توجيه أسئلة للقارئ ومن ثم الإجابة عليها، ومن الأسئلة التي تعلقت بهذه القضية: كيف نعيد الفاعلية للمسلم؟ كيف نؤلف بين العوالم الثلاثة (الأشخاص والأفكار والأشياء) بانسجام وتوازن؟ كيف نعالج أكبر مرض يصيب العلاقات الاجتماعية ألا وهو مرض حب الذات أو تضخم (الأنا) عند الفرد؟.[2]

---

خالد لا تسبها فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له فأمر بها فصلى عليها. أنظر : مسلم (حديث رقم ٤٤٠٦)

[1] سنن ابي داود ، باب في تداعي الأمم ، حديث رقم٤٢٩٩، قال عنه الألباني : صحيح .

[2] مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ، ص١٠٥.

- لا تعود الفاعلية للمسلم إلا بعودة ذلك الاندفاع في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية ، ووضع طاقات الفرد في أحسن حالاتها ، وفي أقصى توترها ، وهذا معنى قوله تعالى {يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ}{مريم :١٢} وأحسن حالاتها أن توضع الطاقات بين حَدَّي الوعد والوعيد ، بين الخوف والرجاء ، فلا يأس من روح الله ، ولا أمن من مكر الله ، وأن تتناسب مع التحدي المفروض عليها فلا هو أكبر منها فتشعر باليأس ، ولا هو أصغر منها فتتساهل وتسترخي ولا تقوم بالجهد المطلوب.

جاء الإسلام فوضع طاقات العرب في موضعها المناسب ، فالكرم والشجاعة في الجاهلية كانا للفخر والاعتزاز، فوضعهما الإسلام في سبيل مبدأ ، في سبيل الله ، فالبطولة أصبحت مبرراتها في عالم الآخرة ولم تعد تدور حول (الأنا)[١].

إن المجتمع لا يتكون من (كومة) أفراد، بل بعلاقات معينة بين هؤلاء الأفراد، وإذا أخذنا نموذجا من عالم الحيوان فسنجد أنه كلما تعقدت المصلحة كلما كانت الفاعلية أكثر، هناك حيوان يعيش بمفرده ، بعيدا عن نظام الأسرة ، ونشاطه يسد فقط حاجات بيولوجية بسيطة ، فإذا نظرنا بعد ذلك إلى حيوان يعيش في مستوى أعلى من هذا ، فإننا نرى العش الذي يبنيه الطير يعطي صورة للنشاط الاجتماعي في مستوى أرقى ، ولكنه دون مستوى الحيوان الذي يعيش في نظام أوسع نطاقاً من الأسرة كالنحل، فإنتاجه هنا يتسم بالفاعلية في صورتين: مادية ومعنوية ، فمن الناحية الأولى نرى أن

[١] مالك بن نبي ، تأملات ، ص٣٧.

نشاط النحل ينتج أكثر من حاجات سربه، ومن الناحية المعنوية نرى أن هذا الإنتاج يفرض على خليته حياة منظمة خاضعة لقوانين معينة، نجد في هذا المجتمع البسيط ظاهرة تقسيم العمل، وقد تزيد مهامها على عشرة أنواع من العمل.

إن الفرد في المجتمع الإسلامي، وبسبب ضعف العلاقات الاجتماعية لا تقدم له الضمانات والمبررات التي تجعله يقدم أقصى طاقاته، وكيف يقدمها وهو يرى الأنانية والتنافس البغيض، وقلة التشجيع، والأهم من ذلك هو عدم وجود الخبرة الكافية في العلاقات والانعكاسات التي تنظم استخدام الطاقة الحيوية في مستوى الفرد وفي مستوى المجتمع إن الذي يخطط للنهوض بالمجتمع الإسلامي يجب أن يكون لديه أفكار

*** الطريق الثامن : توجيه الثقافة لبناء جيل مسلم تقوم على أكتافه الحضارة الإسلامية.**

يقرر مالك أن الثقافة مصطلح حديث النشأة ويستخدمها كثير من الناس بمعنى (العلم) ولكن مدلولها أوسع من العلم- مع أني أرى أن مصطلح الثقافة عند العرب قديم قد اللغة العربية نفسها وقد اختلفت الدلالات الحسية والدلالات المعنوية للمصطلح باختلاف أطوار اللغة العربية -، وقد عرفها مالك بن نبي بأنها "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه" فهي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته ، وهي المحيط الذي يعكس حضارة معينه ، والتعلم جزء

من الثقافة ، وعندما يصبح الهدف هو الحصول على شهادات فنحن بإزاء مرض اسمه (التعالم) ونحن قد نجد رجلا يحمل شهادات عالية ولكن ليس عنده فعالية وقدرة على حل المشكلات ، بينما نجد رجلا آخر مثله في بلد آخر عنده هذه القدرة بسبب الثقافة التي تلقاها منذ صغره ، فالثقافة نظرية في السلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة ، هذه الثقافة كيف نوجهها؟ كيف نركبها من أجزائها حتى تؤتي ثمارها؟ الشرط الأول لتحقيق مشروع ثقافي هو الصلة بين الأشخاص، وهاهو القرآن يعطينا! فكرة عن أهمية هذه الصلة {لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ }{ الأنفال :٦٣} فأساس كل ثقافة هو بالضرورة (تركيب) و (تأليف) لعالم الأشخاص طبقا لمنهج تربوي ، أي أننا نريد للثقافة أن تكون وظيفة ، لبناء جيل مسلم تقوم على أكتافه الحضارة الإسلامية " فالتعليم الفرنسي في الجزائر لم يمنح الجيل الجزائري الفعالية لأن الثقافة لا تشكل على مقاعد الدراسة ، ولكن ضمن مجموع الإطار الاجتماعي الثقافي الذي يحيط بالفرد ، والمدرسة عامل مساعد من عوامل الثقافة ، ولكننا نخطئ في تقدير وظيفتها عندما نعتقد أن في إمكانها أن تحل مشكلة الثقافة وحدها"[١].

ويوصلنا إلى نتيجة في مجال توجيه الثقافة لابد من التحديد السلبي أو تصفية أسباب التدهور والانحطاط ، ثم يأتي بعد ذلك التحديد الإيجابي، وإذا كانت عملية التصفية قد قام بها البعض أو أنه من السهل القيام بها، فإن التحديد الإيجابي لعوامل الثقافة هو المهم ، والعناصر التي يؤكد عليها مالك بن نبي هي:

[١] مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة، ص٧١.

١- عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية.

٢ - عنصر الجمال لتكوين الذوق العام.

٣ - منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام.

٤ - التقنية أو (الصناعة) حسب تعبير ابن خلدون.

أولاً - توجيه الأخلاق:

وبين مالك أن معنى الأخلاق: قوة التماسك اللازمة للأفراد ، هذه القوة التي استطاعت بناء المجتمع الإسلامي الأول ، حتى كان الرجل يعرض على أخيه المناصفة في كل شيء ، وبعض هذه الأخلاق كانت من أسباب بناء المدنية الغربية ، والشباب اليوم ينظرون إلى هذه المدنية في يومها الحالي ويضربون صفحاً عن أمسها الغابر ينسون أنه لولا صلات اجتماعية خاصة ما قامت هذه الصناعات ولما قام هذا العلم ، ونظرة إلى جامعة من جامعاتهم ترينا أن أساسها كان دينياً قامت به جمعية خيرية دينية ، بل إن كلمة دين عندهم (university) تعني في أصلها اللاتيني الربط والجمع.

ثانيا -المنطق العملي:

إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة أو العقل المجرد، فهذا متوفر فهي بلادنا، ولكن ينقصه منطق، العمل والحركة، كيف يصرف المسلم وقته؟ كيف ينفق أمواله؟كيف يستغل علمه؟ مع الأسف إن جزءاً كبيراً من حياتنا يذهب عبثا ، فالمسلم أحيانا لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاماً مجرداً، بل اكثر من ذلك، فهو أحيانا يبغض الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً، ولننظر إلى الأم التي تربى ولدها فهي إما أن تبلده

بمعاملة وحشية ، وإما أن ترخي له العنان وتتميع معه ، إن الوهن والسخف يطبعان منطق قولها.

ثالثا: الذوق الجمالي :

يوضح لنا مالك إذا كان المبدأ الأخلاقي يقرر الاتجاه العام للمجتمع بتحديد الدوافع والغايات ، فإن ذوق الجمال هو الذي يصوغ صورته ، وهو شيء مطلوب فوق الضروريات والحاجيات ، وعندما ذكر الله سبحانه وتعالى خلق النجوم وغاياتها ذكر منها (الزينة) {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ }{الملك :٥ } وكذلك عندما ذكر خلق الحيوانات {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ} { النحل : ٦} ، وقد ورد في الحديث »إن الله جميل يحب الجمال«[1] وذلك في معرض رد الرسول –صلى الله عليه وسلم– على الصحابي الذي سأله عن اللباس الحسن والنعل الحسن هل هذا من الكبر فالذوق الرفيع من العناصر الإيجابية في الثقافة ، فالتناسب والتناسق في الأشكال والأشياء يعطي للإنسان راحة نفسية ، والمنظر القبيح المتنافر لا يوحي بأي خيال جميل ، وقد كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– من أزهد الناس ولكنه كان ينفر من ألوان معينة ، ويشجع الناس على النظافة والاهتمام بالمظهر الحسن وخاصة في المساجد وأيام الجمع والأعياد[2].

إن تربية الذوق الحسن في الأمة هو جزء من ثقافتها ومؤشر على درجة ثقافتها.

---

[1] سنن أبي داود ،١١١/٤

[2] مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص١١٧.

رابعاً – الصناعة أو (التقنية):

وينقل لنا تعريف ابن خلدون للصناعة والتي عرف بأنها: ملكة في أمر عملي فكري وهذا تعريف دقيق لما يسمى الآن (التقنية) فهي تحتاج إلى العلم والممارسة اليدوية حتى ترسخ مع الزمن وتصبح (ملكة) كما عبر عنها ابن خلدون ، وهذه الصناعة لا تكون إلا في مجتمع متحضر ، لأن المجتمع البدائي يحتاج إلى أمور بسيطة لا تحتاج لتقنية ، فوجودها يدل على درجة التحضر والعلم ، فلابد أن يكون في المسلمين فئة تتقن هذه (الصناعة) وتبدع فيها مما يناسب الإسلام والحضارة الإسلامية، وتبتعد عن شرور سيطرة (الآلة) على الإنسان، وهذا يحتاج لمجلس للتوجيه الفني ليحل نظرياً وعملياً المشكلة الخطيرة للتربية المهنية تبعاً لحاجات البلاد[1].

ويقرر أن الإمكانيات في البلاد الإسلامية لتسمح بتكوين القيادات التي تشرف على طريقة تنفيذ هذه (التقنية) وأن تخضع لثقافة المسلم وذوقه المتميز . هذه العناصر التي يرى الأستاذ مالك بن نبي أنها من مكونات الثقافة وأنها تحتاج لتوجيه معين لاشك أنها تصلح لكل مجموعة بشرية أو لكل أمة تبحث عن ثقافتها الخاصة ، وكأن مالك استلهم هذا التحديد من علماء الاجتماع والحضارات في أوربا ، وكان الأولى أن يذكر زيادة على هذا العناصر الخاصة بالثقافة الإسلامية، إن عنصر الأخلاق مثلاً أو الذوق الجمالي يتبعان عقيدة المسلم وتصوراته الخاصة ، فهل يقال للمسلم يجب أن يكون عندك ذوق في

[1] ابن خلدون ، المقدمة ، ج٢، ص٥٣٥

الموسيقى أو النظر إلى فن التصوير؟! لاشك أن للمسلم خصوصياته في هذا المجال [1].

فمن خلال ما تقدم رأينا ما هي طرق الإصلاح الحضاري على حسب رأي مالك بن نبي ، وهي طرق جديرة بالتحليل والتفكيك الفكري للأخذ بها لعلها تكون سبب في أصلاح واقعنا ، ومما يتميز به مالك بن نبي أنه عاش المعاناة ويتحدث من وحي الواقع فما قدمه قد يكون سبيلا للتغير والإصلاح إذا ما أخذنا به .

[1] مالك بن نبي ، شروط النهضة ، ص١١٨.

## المبحث الثالث : أسباب التخلف والجمود حسب رأي مالك بن نبي :

### أولا : القابلية للاستعمار:

عندما يستعرض مالك بن نبي التاريخ الإسلامي يقسمه إلى فترات ثلاث:

١ – الفترة الروحية التي دخل المسلمون فيها إلى حضارة إسلامية: وتبدأ ببداية البعثة النبوية وتنتهي عند معركة صفين ، وتتميز هذه الفترة "بأروع صور الزهد والتقشف التي كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– مثلها الأعلى ، كما تتميز بالتضحية من قبل الصحابة مثل: أبي بكر وعثمان وعمر... ".

وفي هذه الفترة خضعت كل النوازع للإيمان ، وغابت كل الأنانيات والعصبيات ، واندفع المسلم بكل طاقاته وإمكاناته ، وكانت شبكة العلاقات الاجتماعية على أقوى ما يتصوره إنسان ، وبلغة علم النفس:فإن الفرد يكون في أحسن ظروفه ويعيش التوازن الدقيق بين: الروح والعقل ،أو بين: الروح والمادة[١].

٢ – الفترة العقلية: وتمثل أوج ازدهارها المدنية الإسلامية كالفترة الأموية والعباسية الأولى ، وفيها تدون العلوم وتتأسس المدينة ويستبحر العمران– كما يعبر ابن خلدون. "بيد أن العقل لا يملك سيطرة الروح على الغرائز ، فتشرع في التمرد بالتدريج" ، وتضعف قليلاً شبكة العلاقات

[١] مالك بن نبي ، الصراع في البلاد المستعمرة ، ص٢٧.

الاجتماعية ولكن المجتمع يستمر قوياً بالانـــدفاع الأول ؛ حتـــى يصـــل لمرحلة تنتهي فيها قوة الاندفاع كمحرك استنفذ آخر قطرة من وقوده ، وتنتهي هذه الفترة بانتهاء عصر دولة الموحدين في المغرب.

٣ – مرحلة الغرائز التي تستمر حتى بداية هذا القرن: حيث يحاول العالم الإسلامي النهوض، وفي هذه الفترة تتغلب الغرائز الفرديـــة والتفكـــك الاجتماعي ، ويعيش المسلم على هامش التاريخ ، والمجتمع مكوَّن من أفراد لا ينقصهم التدين في كثير من الأحيان ولكنه تدين فردي ، فهـــو يحاول إنقاذ نفسه في الآخرة، ولكن لم يعد يملك التماســـك الاجتمـــاعي وتسخير ما خلق الله له لبناء حضارة ، فهم أفراد من بقايـــا حضـــارة يحملون بين جنوبهم ما يسميه مالك بن نبـــي (القابليـــة للاســـتعمار)، فالمجتمعات الإسلامية المعاصرة لم تُستعمر إلا لوجود هذه القابلية لديها، وقد يتعرض بلد من البلدان للاحتلال والغزو ولكنه يقاوم ، أما الاستعمار فهو صفات نفسية في المستَعمِر والمستعمَر ، فهناك فرق بين الاستعمار والاحتلال ، وقد استعمرت بريطانيا بلداً كبيراً كالهند ولكن إقليماً صغيراً كإيرلندا الشمالية استعصى عليها ، وإن بلداً كاليمن لم يدخله الاستعمار ولكنه مصاب بنفس أمراض العالم الإسلامي[١].

وقبل أن نمضي مع مالك بن نبي في تحليله للفترة الثالثة ، لابد من إبداء تحفظ على هذا التقسيم الحاد للتاريخ الإسلامي الذي يبدو فيه أقرب إلى عقلية المهندس منه إلى عقلية المؤرخ ، فتركيزه على صفِّين جعل حكمه قاسياً على الفترة التي أعقبتها ، بل وقع في أخطاء تاريخية وشرعية ، والضعف العلمي الذي غلب على الأمة الإسلامية إنما هو بعد

[١] مالك بن نبي ، الصراع في البلاد المستعمرة ، ص٢٧.

القرن التاسع وليس بعد الموحدين مباشرة[١]. وقد عبر ابن خلدون عن هذه الحالة بنبرة الأسى والحزن: "وكأني بالمشرق قد نزل به ما قد نزل بالمغرب ولكن على مقدار ونسبة عمران ، وكأنما لسان السكون ينادي في العالم بالنوم والخمول فأجاب" ، ومجيء دولة قوية كالدولة العثمانية لم يغير من الناحية الحضارية شيئاً ، حتى إذا جاء القرن الثاني عشر الهجري كانت الأمة الإسلامية في غاية الضعف والتمزق. "وأصبحت دوافع الحياة فاترة ،يعبر عنها قول أحدهم عندما يسأل عن مهمة حياته:"تأكل القوت وننتظر الموت"[٢].

**ثانيا :الشلل الأخلاقي:**

يقرر مالك إن أخطر مرض أصاب المسلمين هو الأزدواجية بين النموذج القرآني والتطبيق العملي، و يبين أنه قد انعدمت الدوافع الآلية التي حركت الرعيل الأول من الصحابة ، ويلخِّصها قول الفرزدق الشاعر للحسين بن علي –رضي الله عنه– واصفاً أهل العراق: "قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية"، وبدأ ضمير المسلم يتهرب من الحقائق المنزلة "وحركة الخوارج والمعتزلة مثال على ذلك" ، ولكن هذا المرض ازداد فشواً في مجتمع (ما بعد الموحدين) ،فأصبح المسلم نتيجة لغروره لا يحاسب نفسه ، ولا يعترف بأخطائه ، وأصبحت المعادلة: "بما أن الإسلام دين كامل وبما أنه مسلم ، فالنتيجة أنه كامل ، وبذلك اختلت أي حركة عنده لزيادة الجهد والتقدم"[٣].

---

[١] أنظر : فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، ص٤١٢.

[٢] مالك بن نبي ، تأملات ،ص ٤٠.

[٣] مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ص١١٤.

ونتيجة لهذا الخلل ضعفت الروابط الاجتماعية، فعالم الأشخاص لا يتألف ضمن منهج تربوي ، يهتم بالأخلاق ، وهذا التآلف مهم جداً ، قال تعالى:{لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ}؟ [الأنفال / ٦٣ ] ، ومبدأ المؤاخاة الذي قام بين المهاجرين والأنصار أصبح من الخطابات السعيدة ، والأخوَّة الإسلامية أصبحت كلاماً للزينة وشعور تحجر في نطاق الأدبيات [1]، وهذا الضعف يقصد به المجتمع ككل ولا يقصد به كل فرد ، فلا يزال في الأمة (كأفراد) خير كثير، ولا يزال الناس في الريف أقرب للفطرة.

**ثالثا :عدم الفعالية:**

وكان من نتائج هذا الانفصام الأخلاقي التي وصل إليها مفكرنا ، أن المسلم يحمل أفكاراً صحيحة ولكنه لا يستطيع تطبيقها في دنيا الواقع، كفريسة تعرضت للشلل حتى يسهل ابتلاعها ، لأن البيئة التي تحيط به وتغذيه بثقافتها أصبح مثلها الأعلى هو الزهد الأعجمي والصوفية أصحاب المرقعات ، ولا يتمثلون بعمر بن الخطاب أو بعبد الله بن المبارك أو الإمام مالك، "والمسلم في هذه الحالة إنما يغالط نفسه، فيهرب إلى هذه التعلات (أي الحضرات ) الصوفية الكاذبة"، وفي المقابل: نجد عند الغربيين أفكاراً قد لا تثبت أمام النقد الموجه لها ولكنهم استخدموها إلى أقصى ما يستطيعون ، مثل: فكرة (التقدم)، والمسلم يحمل القرآن ولكنه لا يستفيد منه كثيراً في التخطيط لنهضة قادمة ، فعقلية ما بعد الموحدين تشله عن الإبداع ، هناك خلل في طريقة تفكيره ، فعندما اكتشف ابن النفيس الدورة الدموية لم يستفد منها المجتمع الإسلامي لأنه لم يكن

[1] مالك بن نبي ، آفاق جزائرية ، ص٢٣.

على المستوى الثقافي الذي يحيط هذا الاختراع بالرعاية ، والمشكلة: "أن مجتمع ما بعد التحضر يسير إلى الخلف بعد أن انحرف عن طريق حضارته وانقطعت صلته بها"[1].

أمثلة على هذا الخلل:

١ – ذهان السهولة (مرض السهولة): يميل المسلم في تقويمه للأشياء إما للغلو فيها أو للحط من قيمتها، ويتمثل هذا في نوعين من الأمراض: فإما أن الأمور سهلة جداً ولا تحتاج إلى تعب وكد فكر ، والحل بسيط ، وإما أن الأمور مستحيلة ، وأبرز مثال على مرض (السهولة):قضية فلسطين ، فقد قيل: إن إخراج اليهود سيتحقق بعد أشهر ، ولو نفخنا عليهم نفخة واحدة لطاروا، ولكنهم في الحقيقة لم يطيروا ، "وهناك من يظن أنه بخطبة رنانة تحل مشاكل المسلمين، وبعضهم يكره أن تدعوه إلى تفكير عميق في موضوع ما من الموضوعات لأنه يؤثر السهولة ويكتفي بتفسير سطحي ، وعندما تخطط السياسة طبقاً لمبدأ السهولة فإنها سوف تجتذب إلى تيارها كثيراً من الناس ذوي النوايا الطيبة ، الذين يقدرون الأشياء بناء على سهولات الحاضر لا على صعوبات المستقبل "وأيسر طريق لأصحاب السياسات الانتهازية أن يستخدموا كلمات مثل: الاستعمار والإمبريالية والوطنية؛ للتغرير بالشعوب ، هذه الكلمات التي "تليق جداً لتشحيم المنحدر حتى يكون الانزلاق عليه نحو السهولة ميسوراً جداً".

٢ – ذهان الاستحالة: وقد يحدث العكس، فيرى المسلم أن الأمور مستحيلة ويقف أمامها عاجزاً، وهي في الحقيقة غير مستحيلة ولكن

[1] مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص٤٣.

ربما يضخمها عمداً حتى لا يتعب نفسه في الحل ، أو أنه يشعر بضآلة نفسه وصغر همته فيحكم عليها بالاستحالة ، وقد مرت فترة كانت بعض الشعوب تنظر إلى صعوبة إخراج المستعمر من بلادها ، وقد تجد اليوم بعض المسلمين الذين ينتظرون (معجزة الرجل الوحيد) كأن يأتي صلاح الدين آخر ليوحد المسلمين من جديد ، ويعتقدون استحالة أية محاولة لاستئناف حياة إسلامية.

٣- طغيان الأشياء: عندما يكون مجتمع ما في حالة نهوض يجب أن يتحقق الانسجام والتوازن بين هذه العوالم (الأشياء والأشخاص والأفكار)، ولكن الحقيقة أن النزعة (الكمية) هي المسيطرة ، "فلا يسأل المؤلف عن الموضوع الذي تناوله في بحثه ، وإنما يسأل عن عدد صفحات الكتاب ، وقد يقع المؤلف نفسه في هذه النزعة فيفتخر بأنه أخرج كتاباً من كذا صفحة".

وعندما تريد إحدى المصالح الحكومية تجهيز مقرها: تزوده بعدد خيالي من المكاتب ، بحيث يتعذر توفير المكان اللازم لها ، والموظف الكبير يجب أن يكون في غرفته أربعة تلفونات وخمس أجهزة تكييف ، ومشكلة التنمية تعالج بزيادة الضرائب التي تشل جميع أوجه النشاط الفردي ، وفي هذه الأجواء يظن الفرد أن (التكديس) هو الحضارة، فيشتري منتجات الغرب بكميات أكثر مما يحتاج له ،"وإذا كان مجتمع ما قبل التحضر فقيراً في عالم الأشياء ، فإن مجتمع ما بعد التحضر مكتظ بالأشياء ولكنها خالية من الحياة"[1]

[1] مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص٤٤.

**رابعا** : **طغيان عالم الأشخاص** :

يبين بن نبي أنه عندما يتعلق الناس بالأشخاص أكثر من تعلقهم بالمبدأ أو الفكرة فإنهم يرون أن إنقاذهم من الحالة التي هم عليها بـــ (البطل القادم) الذي ينتظرونه دون أن يقوموا بجهد يذكر. فالخــلاص لا يــتــم بتجــمــع أناس على مبدأ يدافعون عنــه ، ويتفــانون فيــه ، ويتــقــنــون فــن التعاون ؛ بل بالرجل الــذي يجــمــعهم ويوحدهم ، وقد يطول انتظارهم وهم يمنون أنفسهم بالأماني ، وهكذا نسمع الخطباء لا يفــتــأون يــذكــرون (أيــن صلاح الدين) أو (قم يا صلاح الدين) ، فهم يريدون (صلاحاً) آخر ينقذهم ، ولاشك إن (إجلال رجل القدر) مثل إجلال (الشيء الوحيد) مرض منتشر في أرجاء العالم الإسلامي ، وهــو أحــيــانــاً السبب في إفلاس فادح لسياسات عديدة وقد لا يكون هناك رجل القدر ولكن (رجل النحس) الذي نلقى عليه كل ضــعفنا وفشــلنا ، وبدلاً من أن نتدبر الأحداث ، ونبحث بطريقة أعمق عن الأسباب الحقيقية لفشلنا يمكن بكل سهولة أن نلصق التهمة بـــ (رجل النحس). فعندما وقع انفصال سورية عن مصر عام ١٩٦١ قالوا : إن السبب هــو رجــل النحس (حيدر الكزبري[١]) ولكن من الواضح أن الانقلاب كان لابد واقعــا في وجود الكزبري أو في غيابه ، فجميع عوامل التشجيع علــى هــذا الانفصال كانت متوفرة ، سواء من الأخطاء التي وقعت أو من عدم توفر فكرة مضادة للانفصال. وقد تتجسد الأفكار بأشخاص ليسوا أهلا لحملها فتحسب كل أخطائهم وانحرافاتهم على المجتمــع الإســلامي أو علــى الإسلام، وقد تتجسد بأشخاص يحملونها ولكن إذا ماتوا انتهــت هــذه

[١] حيدر الكزبري احد قادة الجيش السوري الذي قاد انقلابا ضد الوحدة مع مصر عام ١٩٦١م.

الأفكار بموتهم ، أو فتر حماس الأتباع ، لقد مارس العالم الإسلامي ، دور البطولة في كفاحه ضد الاستعمار عندما بزغ في سمائه أبطال مثل عبد الكريم الخطابي ، وعمر المختار ، وعز الدين القسام... ولكن مشكلة المسلمين الأساسية لم تحل " لأن من طبيعة هذا الدور أنه لا يلتفت إلى حل المشاكل التي مهدت للاستعمار وتغلغله داخل البلاد " ولا يعني هذا إنكار دور هؤلاء الأبطال ، أو التقليل من شأنهم ، ولكنها العودة إلى الأصل وهو إنشاء تيار إسلامي قوي يتعلق بالمبدأ ويقوم بالجهد الجماعي ،ولذلك جاءت الآية القرآنية حاسمة في هذا الموضوع ، إن الواجب على المسلمين قيادة الدعوة وحمل الرسالة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم : { ومَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [ آل عمران:١١٤٤ ][1].

يركز مالك بن نبي في أكثر كتبه على هذا المرض ، ويطالب المسلمين ، والشباب بشكل خاص ، بأن يتحول للارتباط بالمنهج لا بشخص معين ، لأن هذا الشخص مثل الرأس الذي يقود عربات القطار فإذا انحرف ، انحرف القطار كله ، وهذا الذي يثيره الأستاذ مالك صحيح بشكل عام ولكنه بالغ في تهميش دور الأشخاص مع أنهم هم الذين يحملون الفكرة ويجسدونها عملياً حتى يقتنع الناس بها ، وكلامه فيه شيء من التجريد والمثالية ، وهذا الإسلام ، وهو حق صريح ، إذا لم يحمله أشخاص يتمثلونه ويثرونه بين الناس فلا ينتشر إلا قليلاً [2].

---

[1] المرجع السابق ، ص١٠٤.

[2] محمد العيدة ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري " مالك بن نبي أنموذجا " ، ص١٨.

**خامسا : طغيان عالم الأفكار :**

إذا كان هناك طغيان في عالم الأشياء وعالم الأشخاص سبب من أسباب التخلف والجمود ، فيضيف مالك بن نبي سبب آخر وهو الطغيان في عالم الأفكار ، فعندما يكون المجتمع في حالة مضطربة ، فلا هو في بداية دخول الحضارة ، ولا هو خارج تماماً عن الحضارة، في هذه الحالة قد يفقد المتعلم تكيفه مع الوسط الاجتماعي ، أو لا يستطيع أن يقوم بعمل مثمر يرضي ضميره ، عندئذ يلجأ إلى البحث في الأفكار المجردة النظرية التي لا تأخذ طريقها إلى التطبيق ، وبدل أن يتكلم عن معاناة الناس ومشاكلهم والتخطيط لمجتمع أفضل فهو يتكلم عن الماضي الذي ليس له صلة بالحاضر ، أو يفتعل معارك وهمية ليكون هو أحد أبطالها ، وتدفع المطابع كل يوم عشرات الكتب التي لا تمس الواقع المعاش بل هي هروب مفتعل من الواقع ، وقد تطغى الأمور النظرية على مدرس في الجامعة فيتحدث عن تركيب الأدوية وعن النباتات ويجهد نفسه في وصف بعض النباتات بدلاً من أن يمد يده من النافذة ويقطف واحدة منها ليقدمها إلى الطلبة حية نابضة ، ولكنه مع الأسف يبحث عنها في الكتاب ، فهو كل شئ بالنسبة له.

ولا شك أن هناك كثيراً من الأفكار خذلت أصحابها لأنها لا تحمل أصولاً صحيحة ، فكم أهدر من الوقت في جدل ومناقشات ، وكم سودت من صفحات مبنية على أحاديث موضوعة أو ضعيفة ، وكم عاش

**المسلمون متأثرين بأفكار الصوفية [1] التي تدعو إلى البطالة والزهد غير المشروع حيث كان مثلهم الأعلى (المجاذيب)[2].**

**سادسا : اشكالية الحق والواجب :**

**يوضح مالك بن نبي الطبيعة البشرية في مسألة الحق والواجب ويبين أن ميل الفرد بطبيعته إلى نيل حقه ، وقد ينفر من القيام بواجبه ، والأمة التي تصاب بمرض (السهولة) وعاشت قروناً من التخلف ، فإن من أهون الأشياء عليها التي لا تكلفها كثيراً هو المطالبة بالحقوق ، ونسيان الواجبات ، فهي تشبه الكائن (الأميبى) المتبطل ، حتى إذا رأى فريسة هينة ابرز إليها ما يشبه اليد ليقتصها ، ثم يهضمها في هدوء وبقى هذا ا الكائن يأكل من حاجاته المتواضعة حتى إذا جاء الاستعمار لم**

---

[1] الصوفية أو التصوف هو مذهب إسلامي، لكن وفق الرؤية الإسلامية ليست مذهبًا، وإنما هو أحد أركان الدين الثلاثة (الإسلام، الإيمان، الإحسان)، فمثلما اهتم الفقه بتعاليم شريعة الإسلام، وعلم العقيدة بالإيمان، فإن التصوف اهتم بتحقيق مقام الإحسان[1]) وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهو منهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلى الله، أي الوصول إلى معرفته والعلم به، وذلك عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة، وتحليته بالأخلاق الحسنة. وهذا المنهج يقولون أنه يستمد أصوله وفروعه من القرآن والسنة النبوية واجتهاد العلماء فيما لم يرد فيه نص، فهو علم كعلم الفقه له مذاهبه ومدارسه ومجتهديه وأئمته الذين شيدوا أركانه وقواعده – كغيره من العلوم – جيلاً بعد جيل حتى جعلوه علما سموه علم التصوف، وعلم التزكية، وعلم الأخلاق، فألفوا فيه الكتب الكثيرة بينوا فيها أصوله وفروعه وقواعده، ومن أشهر هذه الكتب :الحِكَم العطائية لابن عطاء الله السكندري قواعد التصوف، للشيخ أحمد زروق، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي، والرسالة القشيرية للإمام القشيري ومن جوامع الكلم لمحمد ماضي أبو العزائم وغيرها.أنظر : حقائق عن التصوف للشيخ عبد القادر عيسى ص٧٩.

[2] مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ص١٠٦.

يدع له شيئاً فتحرك ضميره (أي معدته) فمد يده إلى فريسة وهمية أطلق عليها لفظة (الحق).

ويبين أيضاً أن للمطالبة بالحقوق إغراء شديد فهي كالسم لا يجذب الذباب ويجتذب الانتفاعيين ، بينما كلمة الواجب لا تجتذب غير (النافعين)، وعندما يستغلها الزعماء المهرجون لتجميع الغوغاء من الشعب ويلعبون بمفتاح (الحقوق) فسيكون من الصعب أن يستخدموا مفتاح الواجبات وتتحول الأمة إلى استجداء حقوقها من الأمم المتحدة ومجلس الأمن والرأي العام العالمي ولكن ما من مجيب ، لأن هذه الأصنام ما نصبت إلا لتخدير الشعوب وتعليمها لغة الاستجداء.

وعلى الصعيد السياسي فإن كلمة الواجب توحد وتؤلف بينما كلمة الحق تفرق وتمزق ، وهكذا ما خرجت دولة من دول العالم الثالث من ربقة الاستعمار إلا وتناحرت أحزابها على المطالبة بحق اقتسام الغنيمة ، بدلاً من أن يتكلموا عن الواجبات ، وهذا ما حصل في الجزائر، واليمن الجنوبي ، ونيجريا ، والكونغو ....

ومن الأمثلة التي ترويها ذاكرة مالك بن نبي حول هذا الموضوع: "شاهدت خلال بعض المواقف السياسية في الجزائر جيلاً من السياسيين يقفون من قضية مهمة بالنسبة للشعب الجزائري وهي قضية الأمية ، يقفون منها موقفاً جديراً بالملاحظة ، فقد كتب هؤلاء السياسيون المقالات الطويلة لشرح هذا المرض الاجتماعي الخطير ، موضحين نتائجه المنكرة في حياة الفرد ، وهم في هذا كله يهاجمون الاستعمار في خطب ملتهبة بالحماس متقدة بالوطنية ، وهكذا يستمرون في خطبهم ومقالاتهم حتى تتقطع أنفاسهم عن الكلام ، وتمر الأعوام تلو الأعوام

والمشكلة لا تجد في مجهوداتهم حلها ، ذلك أنهم لم يدخلوا إلى المشكلة من طريق حلها ، لقد أصدرت الحكومة الفرنسية عام ١٩٤٠ قوانين استثنائية قاسية حول تنظيم التعليم في مختلف مراحله بالنسبة للطائفة اليهودية (مسايرة لألمانية الهتلرية) وشعرت الطائفة بأن أطفالها قد أصبحوا مهددين بالأمية غير أنها لم تكتب مقالة واحدة تستنكر هذا الإجراء ، ولم يلق واحد منها محاضرة عن هذا الأمر ، وإنما اجتمعت النخبة فيها ودرست المشكلة لكي تحدد موقفها منها ، وحددت موقفها بأن يتطوع كل ذي علم بقدر ما عنده من العلم ، وهكذا أصبح كل بيت من بيوت المتعلمين مدرسة في ساعات معينة ، ولا نستطيع أن نبرر هذا بتفوق اليهود المادي أو العلمي لأننا لا نستطيع أن نفترض أن الدكتور أو الصيدلي أو المحامى اليهودي أغزر علماً من زميله الجزائري ، فالاختلاف هو في الموقف الاجتماعي إزاء مشكلة معينة".

مثال آخر يتذكره ابن نبي وهو يحلل هذه المشكلة : " وبدلا من أن تكون البلاد (الجزائر) ورشة للعمل المثمر والقيام بالواجبات فإنها أصبحت منذ سنة١٩٣٦ , سوقاً للانتخابات ، وصارت كل منضدة في المقاهي منبرا تلقى منه الخطب الانتخابية ، وهكذا تحول الشعب إلى جماعة من المستمعين يصفقون لكل خطيب ، أو قطيع انتخابي يقاد إلى صناديق الاقتراع ، وفى هذا اختلاس أي اختلاس للعقول التي أشرفت على قطف ثمار نهضتها "[١].

وهذا المرض لا يزال مسيطراً على العقول ، فكثيراً ما نسمع في قرية من القرى أو حي من الأحياء المطالبة بحقهم في فتح طريق أو تنظيف

[١] مالك بن نبي ، بين الرشاد والتيه ، ص١٢٩.

شارع أو فتح مدرسة ، وكان بوسعهم أن يتعاونوا لإنجاز مثل هذا العمل. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الناس القيام بالواجب عندما أعطى الذي جاء يطلب صدقة حبلا وفأسا وأمره أن يحتطب ولا يتكفف أيدي الناس.

وهذه العقلية موجودة في أوساط المسلمين بسبب بعدهم عن (الفعل الحضاري) وبسبب التكوين الاجتماعي الذي ورثناه ، ومن مظاهرها "أن جهودنا في كل مجال لا تتسمم بالجهد المتواصل ولكن بالمحاولات المتتابعة ، فما أن يبدأ نشاط ما حتى يذهب فجأة كأنه وثبة برغوث أو كأنه مركب على صورة الخط المنقط الذي يمر من نقطة إلى أخرى دون أن يصور شيئاً ، ولنعتبر على سبيل المثال كم منذ نهاية الحرب ظهرت مجلة في بلادنا ثم اختفت بنفس السرعة".

ومن مظاهر هذه العقلية "العجز عن أن نعقد صلات بين الأفكار وعن أن نعطي لمناقشة مشكلة ما حركة متصلة مطردة لا يحجل فيها الفكر من نقطة إلى نقطة ، بل يطرد دائماً من مقدمة إلى نتيجة" "وإذا كان من الممكن تجزئة المشكلة لتجزئة حلولها (فكل الطرق تؤدي إلى روما) ولكن الطريق عبر المنهج هو أطول الطرق بلا شك ، إن طريق الحضارة لا يمكن خطه بإقامة مدرسة هنا ومصنع هناك وسدٍّ هنالك ، أو بوضع سلة معدنية في جانب هذا الشارع حيث لا أحد يفكر في إلقاء المهملات"[1].

[1] مالك بن نبي ، الصراع الفكري ، ص٣٤.

**سابعا : اشكالية التعالم والحرفية في الثقافة :**

يبين مالك أن مجتمعاتنا عانت في عصور الضعف مشكلة (الأمية) والجهل ولكنها عندما حاولت النهوض أصيبت بمرض مستعص وهو (التعالم) أو الحرفية في التعلم وحمل اللافتات العلمية " وإذا كنا ندرك بسهولة كيف نداوي المريض الأول ، فإن مداواتنا للمريض الثاني لا سبيل إليها لأن عقل هذا المريض لم يقتن العلم ليصيّره ضميرا فعّالاً ، بل ليجعله آلة للعيش ، وسلماً يصعد به إلى(الوظيفة) ، وهكذا يصبح العلم عملة زائفة غير قابلة للصرف ، وإن هذا النوع من الجهل لأدهى وأمر من الجهل المطلق ، فالجاهل هنا لا يقوّم الأشياء بمعانيها ، ولا يفهم الكلمات بمراميها ، وإنما بحسب حروفها ، وكلمة (لا) تساوي عنده (نعم) لو احتمل أن حروف الكلمتين متساوية ، وكلام هذا المتعالم ليس (كتهتهة) الصبي فيها براءة وإنما (تهتهة) يتمثل فيها شيخوخة وداء عضال، فهو الصبي المزمن".

لقد تحولت اللافتات العلمية زينة تتصدر المجالس، وألقاباً للتفاخر ذلك أن نزعة المديح والألقاب قد أسرتنا منذ عهود الانحطاط ، فألقاب مؤلف أي كتاب لابد أن تملأ نصف الصفحة الأولى على الأقل ، فهو العالم العلامة والحبر الفهامة...

ونظرة إلى الصحف الآن التي تعيش على المدح تكفى لنعلم كم نعيش تحت أسر الكلمات الطنانة التي ليس لها معنى ، وإنما هو الغرام الأحمق بمجرد الكلام ، "وفى هذا ضرر كبير على كيان الأمة لأنها تفقد حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح" ، ويصبح المثل الأعلى من هو أقدر على الكلام ولو لم يكن له أي دور اجتماعي "وقضية الجهل لا تعالج بمجرد وضع البرامج التعليمية ، بل يجب أن يكون أولاً عملية تصفية نفسية ، وبكلمة واحدة أن يكون التعليم بناء الشخصية الجديدة"[1].

[1] مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي ، ص٤٨-٥٢.

## *الخاتمة : وفيها أبرز النتائج والتوصيات :

النتيجة التي نصل إليها بعد هذا البحث أن مالك بن نبي كان حقيقة من المجددين الذين بعثهم الله لتجديد أمر الدين في القرن العشرين وقد كان له منهجا متميزا في الإصلاح والتجديد وخصوصا أنه عاش في فترة تحول خطيرة في حياة الأمة التي كانت ترزح تحت وطأة الاستعمار ، ويمكننا أن نجمل القول في طريقة مالك بن نبي في الإصلاح والتجديد في النقاط التالية :

**أولا:** أن هناك جملة من العوامل التي كان له أثر كبير في تكوين شخصية مالك التي كانت لها منهجية وطريقة متميزة في التجديد والإصلاح.

**ثانيا:** من أهم طرق مالك في التجديد والإصلاح نظرته إلى الحضارة الإنسانية وبلورته الفكرية لمشكلات الحضارة إذ يرى أن الحضارة ليست تقدم مادي خالص ولا بد من العودة للدين مقرونا بالإقلاع نحو التطور والصناعة.

**ثالثا:** يجمل مالك بن نبي أسباب التخلف والجمود في أمتنا القابلية للاستعمار حتى لو لم نكن مستعمرين والشلل الأخلاقي الذي أصاب الأمة وفقدان الفاعلية وطغيان عالم الأشخاص ومن ثم إشكالية الحق والجواب وغيرها مما ذكرنا.

**رابعا:** أن التجديد والبناء الحضاري لا يتحقق إلا بالتخلص من عقدة الاستعمار والأيمان العميق بالمبدأ، ومن ثم الاندفاع فيه والحماس له هو بداية الإقلاع.

**خامسا** : يرى مالك أن التحضر الحقيقي هو في توجيه الثقافة وتوجيه الأخلاق والذوق الجمالي وليس بالتقدم المادي فقط .

وفي الختام أوصي الباحثين والدارسين أن يعكفوا على دراسة مثل هذه الشخصيات التي لو كانت كلمتها مسموعة لغيرت واقع الأمة ولكنا في مصاف الأمم المتقدمة ذوقا وأخلاقا وصناعة ، فنرجو الله أن نكون قد قدمنا شيئا يصب في هذا الاتجاه ، والله من وراء القصد .

## *أهم المصادر والمراجع:

١. أحمد الشيباني ، تدهور الحضارة الغربية ، ترجمة وطباعة دار مكتبة الحياة– بيروت .

٢.خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيـــروت ، ط١٥، ٢٠٠٢م .

٣. أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن ابي داود ، لناشر : دار الكتاب العربي ــ بيروت.

٤. فهمي الجدعان ،أسس التقدم عند مفكري الإسلام ، دار الشـــروق / عمان ، ١٩٨٨م.

٥.عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ، المقدمة ، المكتبـــة التجاريـــة / القاهرة ،

٦. عبد القادر عيسى ، حقائق عن التصوف ، دار العرفان ، ٢٠٠١م .

٧. عمار الطالبي ، اثار ابن باديس ، دار ومكتبة الشركة الجزائريـــة ، ط١، ١٩٦٨م .

٨.مالك بن نبي ، مذكرات شاهد للقرن ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨١م.

٩.مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر – دمشق، ١٩٨٦م.

١٠.مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، دار الارشاد/بيروت ، ١٣٨٨هـــ

١١. مالك بن نبي ، شروط النهضة ، دار الارشاد / بيروت، ١٣٨٨هـــ.

١٢.مالك بن نبي ، مشكلة الأفكار ، ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر – دمشق، ١٩٨١م.

١٣. مالك بن نبي ، الصراع الفكري ، دار الارشاد / بيروت.

١٤.مالك بن نبي،وجهة العالم الإسلامي،دار الارشاد/ بيروت،١٣٨٨هـ.

١٥. مالك بن نبي ، الصراع في البلاد المستعمرة ترجمة : عبد الصبور شاهين ، دار الفكر – دمشق ،١٩٨٦م.

١٦. مالك بن نبي ، تأملات ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت.

١٧. مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٤م..

١٨. مالك بن نبي ، آفاق جزائرية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٥م.

١٩. مالك بن نبي ، بين الرشاد والتيه دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨١م..

٢٠. مالك بن نبي ، الصراع الفكري ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٤م..

٢١. مالك بن نبي ، في مهب المعركة ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت.

٢٢. مالك بن نبي، أنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الحديث، دار الإرشاد / بيروت، ١٣٨٨هـ.

٢٣. محمد العيدة ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري " مالك بن نبي أنموذجا " ،تقديم : عمر عبيد حسنة ، سلسلة كتاب الأمة من منشورات مركز البحوث والدراسات / قطر.

٢٤. محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري ، التاريخ الكبير، تحقيق : السيد هاشم الندوي ،الناشر : دار الفكر ، بيروت .

٢٥- مجلة البيان ، العدد الأول ، سنة ٢٠٠٢م، لندن.

٢٦. مقال للدكتور محمد جلوب الفرحان بعنوان " حضـــور فيلســـوف التاريخ الألماني المعاصر

هرمان دي كيسرلنج " في خطاب مالك بن نبي ، منشور على موقع

https://drmfarhan.wordpress.com

27. Spengler, O., "The Decline of the West", Trans. into English by Charles Francis Atkinson, Allen & Unwin, London, 1959.